ألبير قصيري

شحاذون ومتكابرون

رواية

ترجمة : محمود قاسم

الكتاب: شحاذون ومتكابرون (رواية)

الكاتب: ألبير قصيري

ترجمة : محمود قاسم

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قصيري ، ألبير

شحاذون ومتكابرون (رواية)/ ألبير قصيري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى: 7 – 331 –446 –977 –978

أ – العنوان رقم الإيداع : 2017/7927

شـاذون ومتكـابرون





- 1 -

استيقظ جوهر، حلم أنه يغرق، استند على مرفقيه وتطلع حوله، امتلأت عيناه بالريبة، والرغبة فى النوم مرة أخرى. لم يعد يحلم، لكن الواقع كان قريبا من حلمه حتى تردد لحظة. أدرك أن هناك خطرا يهدده.

تمتم: ياالهى، لقد حل الفيضان وسوف يغرق النهر كل شئ. لكنه لم يبد أى استعداد للهروب من الكارثة. بل على العكس فقد ظل غارقا فى نومه كأن شيئا لم يحدث.

استغرق كثيرا من الوقت كى يتماسك، ود لو يدعك عينيه لكنه امتنع. فيداه مبللتان وملزوجتان. ينام فوق الارض بملابس الخروج. فوق حاشية رقيقة من أوراق الصحف القديمة. لقد علت المياه وغطت الأرض كلها حتى دخلت غرفته. تنساب نحوه فى هدوء كأنها كابوس. أحث جوهر كأنه يقف فوق جزيرة تحوطها الأمواج العاتية، لا يجرؤ على الحركة. أغرقه انسياب هذه المياه فى ذهول شديد. استبد به خوف ان يستيقظ من نومه. أدرك الان أن فكرته عن الفيضان الذى يندفع فى مجرى النهر ليست سوى خيالات. حاول أن يعرف من أين تأتى هذه المياه. وهو يدفعها بقدميه أدرك انها تتسرب من أسفل باب الغرفة المجاورة.

ارتعد جوهر وهو يشعر بخوف شديد من البرد، حاول ان ينهض. لكن النوم يثقل عليه. يشل أعضاءه، يربطه بأربطة خفية. مسح يديه اللتين لم تبلا بعد فى سترته. الآن يمكنه أن يدعك عينيه. شعر بالخوار والتعب. تطلع إلى باب الغرفة المجاورة وهو يفكر: "لعلهم يمسحون البلاط. ومع هذا فشلوا فى إغراقي" بدا له أن الجيران يتصرفون بطريقة تثير الغيظ. خاصة أن هذا الامر لم يحدث من قبل. فى هذا المنزل المتداعى الذى يقع فى أحد الاحياء الشعبية. يسكنه قوم فقراء تربط الألفة فيما بينهم. لايمسحون البلاط أبدا. لعلهم سكان جدد ماكرون يحاولون إثارة مشاعر أهل الحى..

ظل جوهر جامد المشاعر. كأن ذهولا استبد به. عليه ان يفعل شيئا كى يوقف هذا الفيضان. لكن ماذا يفعل؟ من الافضل ان ينتظر معجزة. فمثل هذه المواقف العابثة تقتضى حلا عن طريق قوى خارقة. أحس جوهر بخوار فى قواه. انتظر بضع دقائق لكن شيئا لم يحدث، ولا توجد قوى يمكنها أن تزحزحه من مكانه. انتصب فجأة. ظل واقفا ساكنا. وقد اصابه هذيان. كغريق تم انقاذه، ثم وبتثاقل بالغ، تقدم ناحية الارض واتجه الى المقعد الوحيد الذى لا يوجد سواه فى الغرفة. اللهم الا صندوقا مصنوعا من خشب الممبو. عليه موقد، وإناء قهوه وزجاجة مياه صالحة للشرب. فجوهر يعيش فى أشد ظروف العيش شظفا. لقد استبعد من ذاكرته منذ زمن طويل أبسط فكرة عن الرفاهية. يكره أن تحوطه الاشياء. فالأشياء تخفى أسباب المأساة وتجسدها وتضاعف منها.

المأساة التى لا تشوبها شائبة وتتولد حتما. يخشى أن تعود المأساة للظهور مرة أخرى لقد أصبحت الأشياء رمزا. وعليه أن يبعد عن عينيه كل المؤثرات. لذا أخلى جوهر غرفته من كل شئ وبدت له بالغة الجمال. فيها يشعر بالتفاؤل والحرية. فالأثاث يثير حفيظيه. لأنه لايمكن أن يثير غريزته فى التطلع نحو الرفاهية. لكن الناس وحدهم فى أشكال جنونهم المختلفة يمكنهم التسرية عنه.

ظل ساكنا برهة، وهو يتطلع إلى سريره الارضى الذى لم يعد صالحا للاستعمال. غرقت الجرائد القديمة التى يستخدمها كحاشية. وبدأت فى الالتصاق بالارض. أحس بالسعادة وهو يراها تتلف بسبب بساطتها الأولية. لم يعد هناك شئ. فقد مرت العاصفة بلا خسائر جسيمة. أحس جوهر أنه لا يزال صامدا. ولذا لن يسعى لمعالجة الموقف، من جديد تذكر جيرانه المزعجين وتساءل عن اسباب هذه النظافة المريبة. ماذا يودون؟ فالمترل لا يحتمل أبدا مثل هذه المظاهر، المترل متهالك وقد ينهار بين لحظة وأخرى. وأنذاك سوف يتضرعون مبتهلين إلى الله أن ينقذهم.

حاول جوهر أن يفهم نوايا هؤلاء الجيران المزعجين، عندما انفجرت صرخة ضخمة متدفقة من صدور عديدة، صرخة قوية أشبه بليل سرمدى، قادمة من الغرفة المجاورة. اهتزت لها جدران البيت القديم وشقت صدره، أعقبها صمت حاد. ثم صرخات مدوية. لم يفهم جوهر على التو ماذا يعنى هذا الهذيان الشديد. فهناك فى الغرفة المجاورة يوجد

ميت. وما تلك المياه البيضاء المليئة برغاوى الصابون الا الغسول الذى غسلت به الجثة.

فى أول الأمر، أحس بذهول تبعه شعور بالاشمئزاز. فجلس فوق المقعد وقد تقطعت أنفاسه. نظر بنصف عين إلى يديه المرتعدتين والمبللتين، وملابسه التى لوثت بالموت. انتفض فجأة لينفض عنه أسباب الموت الماكرة. واسرع نحو القلة. لكن القلة خاوية، ألقى جوهر نظرة مرتعدة، وهو يفتش عن حنفية غير موجودة. كيف يغسل يديه؟ أبقاهما متباعدتين وهو يتساءل عن المرض الذى أصاب جاره. لعله اصيب بمرض معد وهو يؤكد لنفسه متألما "الجراثيم!" بدا أن الخوف من الجراثيم شئ مضحك. إذا كان علينا أن نموت من الجراثيم لمتنا جميعا منذ وقت طويل. فالجراثيم تفقد فاعليتها فى مثل هذا العالم. جلس فوق المقعد وظل يفكر طويلا فى هذه المغامرة الغريبة. اجتاز كوارثه العديدة بفضل تفاؤله واحساسه بأنه تخلص منها إلى الابد. من جديد تأمل الارض التى طالتها المياه، وورق الصحف المتناثرة والغرفة الخاوية، فانفجرت ابتسامة غريبة من وجهه الهادئ النحيل.

فى الغرفة المجاورة ارتفع النواح إلى أعلى درجة، اتسعت صرخات النساء إلى حد لم يعد يحتمله. عاكسة جوا من الدراما الدامية. لا يمكن لأى قوى بشرية ان توقفه. بدا جوهر مفتونا بهذه الصرخات المرعبة. وشعر بالرغبة ان يفاجئهن بالصراخ مثلما يفعلن. لكن هذه الصرخات تخرج من حناجر مأجورة. تخترق أذنيه كأنها نداءات قادمة من عالم

غريب، لم يعرف فيها أى سمة من سمات الآدميين. هذا العالم المصنوع من الالام المصطنعة الصارخة التى تملأ رأسه بضوضاء مسموعة تبعث على الدوار.

لقد استيقظ قبل موعده. ويريد ان ينام ثانية. لكن كيف ينام وخلف جداره هؤلاء النادبات الملعونات؟ نساء لا يعرفن الرحمة. ارتعد جوهر. وانتابته رعشة باردة. انتظر طويلا، ثم هب من مقعده وقرر الخروج.

أمسك طربوشه الذى كان يضعه فى ركن من الغرفة لم يصل إليها البلل. دسه فى رأسه: ثم أمسك عصاه وخرج إلى السلم. كان باب جيرانه مفتوحا عبى مصراعيه. تردد جوهر طويلا وقد ارتسم الخوف على وجهه. فلأنه رجل اعتاد الحذر فهو يعرف أن النساء ستبكى عندما يشاهدن رجلا، لذا هرول إلى السلم دون تفكير وهو يلقى نظرة خفية على العديد من البدينات اللائى اتشحن بملابس الحداد. هن يجلسن داخل دائرة. يضربن صدورهن بأيديهن ويطلقن الصرخات الحادة. أحس جوهر أنه يكاد أن يغمى عليه. وان السلم سوف ينهار أسفل قدميه ولم يعرف كيف وجد نفسه فى الشارع.

الوقت ظهرا. شارع الازهر الواسع يعج بحشد متزاحم يشغله شاغل. عاد جوهر إلى لياقته. فهنا عالمه المألوف بين الجموع الغفيرة التى ترزخ فوق أرض الشارع والرصيف، رغم أن الطريق ملئ بالسيارات.

والعربات الحنطور والكارو. والترام الذى يسير بسرعة. سطعت شمس الشتاء الواهية فوق الحشود. تطير الحداءات فى أعلى السماء ثم تغوص – من وقت لآخر – وسط الجموع كى تعاود الطيران وقد امتلأت مناقيرها بقطع من اللحم. فلا يعيرها احد انتباهه. تقف النسوة امام محلات الأقمشة. يثرثرن لساعات اثناء شراء بعض المناديل المطبوعة. يتسلى بعض الأطفال وهم يشاكسون سائقى السيارات حين يقفون امام عرباقم. فيطلق السائقون سبابهم ولعناقم عليهم وعلى امهاقم الغائبات. وقد ينتهى الأمر بدهم أحدهم. من المقاهى المتناثرة فى الشارع تبث أجهزة المذياع نفس الصوت الباكى لمطرب معروف. تصاحبه موسيقى حزينة. وكلمات تعبر عن آلامه وأحزانه حول قصة حب ضائع. تذكر جوهر جاره الميت. ونواح النسوة فأسرع الخطى. لكن لا جدوى من الفرار من هذا الصوت الحزين الذى يملأ الشارع بأكمله.

توقف جوهر وقد تكتم احساسا بالفرح وسط مزيج متنافر من الاصوات فى الشارع. فأمام حانوت خاو رأى عجوزا يجلس متأنقا فوق مقعده. وقد أخذ يتطلع إلى المارة بنظرة متعالية. يبدو غريب النظرات. فكر "هذا رجل ارتاح اليه" فهذا الحانوت الخاوى وهذا الرجل الذى لا يبيع شيئا يمثلا بالنسبة له امرا منشودا لا يقدر بمال. فالحانوت ليس سوى ديكور، وهو يفيده فى استقبال اصدقائه الذين يدعوهم لاحتساء القهوة. هو رجل يتمتع بكياسة وكرم كبيرين. حياه جوهر كأنه يعرفه منذ أمد طويل. رد الرجل مبتسما وقد أدرك أنه معجب به. قال الرجل:

– شرفنى وتناول فنجان قهوة.

قال جوهر: شكرا، فى مرة قادمة.

تبادلا النظرات لحظة بمودة بادية يحوطها الدفء. ثم استكمل جوهر طريقه وسط الجموع. كان بالغ السعادة. نفس الشئ يحدث له دائما: هذه الدهشة ازاء البساطة الغامضة للحياة. فكل شئ مثير للسخرية. وليس عليه سوى ان ينظر حوله كى يقتنع. فالأمور التى حدثت له لم تكن مأساوية بالمرة. بدت المأساة ذات ثراء غامض. لم يسمع أحد عنها أو يتوقعها. تتحكم اللامبالاة فى مصير هؤلاء الناس. اكتست كل الاشياء الدنيئة بعلامات البراءة والنقاء. أحس جوهر بمشاعر التعاطف الانسانى فى كل خطوة يخطوها فى هذا الجمع الغفير.

عبرت عربة ترام صفراء الشارع محدثة ضجة شديدة. يحتفظ بتذكرته دوما لكى يشق لنفسه ممرا وسط الجمهور الذى يسد منافذ الطريق. وقريبا من مطعم فول مدمس، أثارت رائحة الطعام الرغبة فيه. توقف. اتكأ على عصاه. وانتظر قليلا، لا. ليس الجوع هو السبب فليس للجوع أدنى تأثير عليه. يمكنه ان يعيش اياما على كسرة خبز. يعنى هذا الاضطراب شيئا آخر. سار بضع خطوات وأدرك طبيعة قلقه. الحشيش. لقد نسى الحشيش، لخبطت وفاة جاره عاداته اليومية. فجوهر لا يستيقظ الا مع حلول الليل، ولم يحن الوقت بعد لتعاطى المخدر. ومنقذه الوحيد

هو يكن الذى لا يمكن ان يلقاه الا فى المساء. ومن الصعب أن يقابله الآن. فليس ليكن مسكن محدد. لأنه يعيش بلا مأوى.

كيف يمكنه أن يتماسك حتى يحين الليل؟ تبعث هذه الرؤية الجنون داخله، سوف يعانى. ويعرف ذلك جيدا، وقد استعد تماما لهذه المعاناة. فوضع فى جيبه كيسا ملفوفا. سحب منه قطعة من النعناع. وبدأ فى استحلابها ببطء ومهارة. ليس لها مذاق الحشيش. ولكن هذا الطعم لا يمكن أن يلهيه.

ابتسم وهو يرى عن بعد الشحاذ الذى لا يفتقده متقوقعا فى ركنه المألوف. نفس النداءات التى يرددها دائما. فى كل مرة يمر أمامه. اذا لم تكن مع جوهر نقودا، يدور بينهما حديثا له أهمية خاصة. فجوهر يعرفه منذ أمد طويل ويشعر بالسعادة حين يحادثه. انه شحاذ من نوع خاص، ولا يردد أى شكوى ولا يعانى من أى عاهة. بل على العكس، هو يتمتع بصحة طيبة. جلبابه سليم ونظيف تقريبا تختلف نظرته عن نظرات الشحاذ المحترف. يعجب به جوهر كثيرا. لأنه لم يحافظ على تقاليد الشحاذين ولا يعير أحد هذا الشحاذ الأنيق أى اهتمام فوسط هذا العالم العبثى. يبدو ما يفعله الشحاذ عملا مثل بقية الاعمال، العمل الوحيد المقبول منطقيا، من ناحية أخرى فهو يقبع فى نفس المكان دائما. كأنه موظف يجلس وراء مكتبه. يلقى المارة ببعض القروش فى بعض الاحيان ينبه المحسن أنه منحه قطعة معدنية زائفة. وقد يهدده أن يستدعى الشرطة. وتنتهى الأمور دائما لصالحه.

توقف جوهر وحياه. رد الشحاذ: وعليك السلام. رأيتك تأتى عن بعد، فتأهبت للقائك.

قال جوهر : آسف. فليست معى نقودا. فى المرة القادمة.

– من اخبرك انى أريد نقودا؟

– ولما لا ؟ اعتقدت انك تحتقرنى.

قال الشحاذ محتجا: ابعد عنك هذه الفكرة. فرؤيتك وحدها تسعدنى. لأننى أحب الحديث اليك. وحضورك يساوى كنوز الدنيا.

قال جوهر: انت تبالغ. هل تسير الأمور على ما يرام؟

– ربنا كبير! من السعادة ان تكون موجودا. ألم تسمع حكاية الانتخابات؟

– لا. أنا لا أقرأ الصحف.

– انها ليست فى الصحف. بل حكاها لى شخص.

– حسنا. اسمعنى اياها.

– لقد حدثت منذ ايام فى احدى القرى الصغيرة بالدلتا. اثناء انتخابات العمودية. عندما فتح موظفو الحكومة الصناديق، لاحظوا ان

أغلب البطابقات تحمل اسم برغوث. ولم يكن الموظفون يعرفون هذا الاسم. فهو ليس فى قائمة أى حزب من الاحزاب. أصابهم الجنون. ورجعوا إلى المصادر ليكتشفوا أن برغوث هذا هو اسم حمار يلقى احتراما كبيرا لرجاحة عقله فى القرية. وقد صوت أغلب السكان من أجله. ما رأيك فى هذه الحكاية؟

شعر جوهر بارتياح وهو يفكر: يا لهم من جهلاء. لقد فعلوا أفضل شئ منذ ان عرف الانسان الانتخابات. فتعرف هؤلاء الفلاحين الضائعين فى اعماق قريتهم برهان أن الحالة أصبحت محالة. أحس جوهر بالاعجاب من هذه الحكاية وهو يتأمل الشحاذ برهة. حطط حدأة على الرصيف قريبا منهما. نقبت بمنقار باحثة عن شئ تخطفه وسط الزبالة. فلم تجد شيئا تأكله فعاودت الطيران.

صاح جوهر: عجبا. وكيف انتهت الحكاية؟

– بالتأكيد لم تتم الانتخابات. فهم يريدون حمارا بأربعة أقدام بينما المرشح حمار بقدمين.

– انت تستحق هدية لهذه القصة الرائعة التى اسعدتنى. ماذا استطيع بالنسبة لك؟

قال الشحاذ: تكفينى صداقتك، كنت أعرف مسبقا انها ستعجبك.

رد جوهر : معرفتك تشرفنى دوما.. إلى اللقاء.

استدار جوهر وعرج داخل حارة هادئة. متجها إلى مقهى المرايا. يعرف انه لن يقابل احدا فى هذا الساعة من النهار. ولكن يجب حدوث معجزات.

تقع مقهى المرايا بين تقاطع حارتين. تشغل الجزء الاكبر فى مبنى من الطوب اللبن. ممنوع على العربات الكبيرة المرور فيه. ولكن مسموح لعربات الباعة الجائلين. تعلوه مظلة ضخمة من الكتان أعلى الشرفة الواسعة فتبدو كأنها سوق مغطى. علقت مرايا عديدة احاطتها اطارات ذهبية فى كل مكان. خاصة فى الواجهة. اشتهر مقهى المرايا بشايه الاخضر وارتفاع مستوى زبائنه من أصحاب السيارات ، ورجال الفكر والسواح الاجانب الذين يعشقون الذوق المحلى. فى هذه الساعة لم يكن المقهى مزدحما. اكتاز جوهر الشرفة وتسلل بين الموائد باحثا عن شخص يعرفه، يدخن بعض الاشخاص الذين تبدو عليهم الاهمية أجيلة وهم ساكنين فى اماكنهم، يلعب الآخرون الطاولة، أو يحتسون الشاى. هناك بعض بقايا السجائر المتناثرة تنتظر جامعى الاعقاب الذين يقومون ويوزعون العمل بينهم دون ان يخشوا اى منافسة.

– السلام عليكم يا سيدي!

استدار جوهر . قام الكردى بنصف قامة من فوق مقعده وهو يمد يده. سأله جوهر:

– كيف حالك؟ ألم تذهب اليوم إلى الوزارة؟

– ذهبت. لكننى تركتها لتوى. لا استطيع ان أعمل ياسيدى. فانا رجل بائس.

– ماذا بك ياولدي؟

قال الكردى بنبرة غامضة: جئت من هناك. أشد مرضا من أى وقت آخر. تركتها نائمة – لاحظ ان جوهرا لا يزال واقفا.

– اجلس يا سيدى.

جلس جوهر. نادى الكردى على النادل:

– ماذا تشرب؟

رد جوهر : شايا.

قال الكردى: وأنا أيضا .

أطلق النادل الطلب بصوت متناغم وعال، تطلع جوهر نحو الكردى الذى يبدو الاسى والحزن البالغ على وجهه. يحاول أن يجسد هذا الاحساس. شاب مهندم أنيق. يرتدى طربوشا جديدا، عيناه مشدودتان بخفة. وفمه شهوانى مليء بالمرارة. يعمل موظفا بسيطا فى احدى الوزارات وهو عمل يتناقض مع رومنسيته ويمكن ملاحظة حبه للحق بسهولة. قال:

– لا أستطيع أن أتركها على هذا الحال. يجب أن أفعل شيئا. انصحني والا انتحرت.

لم يرد جوهر على الفور. امتص النعناع الذى أنساه الحاح المخدر تماما.

– لماذا تنتحر؟

– انت لا تفهم. يجب أن أخرجها من هذا الماخور. لا أستطيع أن أتركها تمارس الدعارة هكذا. الها مريضة خاصة أن الست أمينة – السافلة – لا تسمح لها حتى بالراحة عندما أفكر فى النقود التى جلبتها لها، ياللعار! قلت لك سوف أنتحر.

لم يعر جوهر كلامه أهمية. فالكردى يبالغ دائما فيما يتعلق بمتاعبه. يبدو الآن كأنه يحمل هموم الدنيا. تنتابه هذه الحالة بين الحين والآخر كى يشعر بكرامته. فالكردى يتخيل أن الكرامة هى ضريبة الألم واليأس. ويشعر ان كثرة قراءاته الغربية أفسدت فكره.

تنصب متاعب الكردى الحالية من خلال احدى العاهرات الشبات التى تعانى من مرض السل الرئوى فى احدى المواخير القريبة. ماخور فقير يؤمه صغار الموظفين وأشقياء المدينة فى البداية التقى بها الشاب مرتين أو ثلاث دون أن يعير الأمر انتباها. الا عندما علم بمرضها. أحس ان المجتمع قاس عليها فأحبها بجنون. وأصر أن يخرجها من هذا الماخور وان ينقذها

من موت محقق. لكنه لا يمتلك النقود الكافية لمواجهة هذا المرض الشرس. فظل يتخيل الحلول المثلى لحبه البائس. وفى هذه اللحظة قرر الانتحار. لكنه أدرك أن الانتحار ليس قراره النهائى. سأل:

– ماذا أفعل؟

سكت جوهر. بدا كأنه يتسلى. تشع عيناه بفرحة تكمن فى أعماق هذا الوجه الجامد. قال له بعد قليل:

– سأروى لك حكاية غريبة.

سأل الكردي: ماهي؟

روى له جوهر حكاية الحمار برغوث الذى انتخب كعمدة لما اشتهر به من حكمة ودل هذا على حكمة فلاحى الدلتا. بدأ الكردى فى الابتسام. لكنه أدرك أن عليه الا يكون سعيدا كى يثبت لجوهر أن هناك أشياء جادة فى حياته. بدا محتدا وهو يقول:

– حرام. هذه أشياء همجية.

– اتعتقد أنهم همج؟

– أجل. ةتستغل الحكومة جهلهم.

– لكنهم أعطوا درسا بليغا لحكومتك.

قال الكردى غاضبا: أولا ياسيدى. ليست حكومتى. ثم ان لى أساليبى التى أناضل بها ضد هذه الضغوط. وسوف تكتشف يوما أن هناك أشياء جادة فى الحياة.

– أين ترى الأشياء الجادة يا بني؟

تطلع الكردى حوله بشكل غريزى. وهو يفتش عن مظاهر العظمة. لكنه رأى جامع أعقاب صغير ينحنى قريبا من المائدة كأنه يستمع لحديثهما. يلتقط الاعقاب بمهارة وتلقائية. أثار هذا المشهد الكردى فقام وأزاح المقعد كى يمكن له أن يتفحص الارض: ورغم هذا لم يبتعد الطفل. بدا كأن حبلا ربطه بهما. قال وهو ينظر إلى الطفل ساخرا:

– ألا تود ان تتناول معنا شايا، ياسعادة البك؟

– رد الطفل: شكرا. فقد شربت فى قهوة البسفور.

والبسفور مقهى فخم يؤمه علياء اليوم. ولم يطأه الكردى أبدا. قال غاضبا:

– هيا يا ابن الكلبة. والا ختقتك.

غادر الطفل المكان مشمئزا. عندما ابتعد انفجر الكردى ضاحكا:

– هل سمعت يا سيدى. يا له من طفل خفيف الظل!

ابتسم جوهر وهو ينظر إلى الشاب بنظرة تملأها السخرية. انه معجب بعبثه الذى لا حدود له. فهو شاب ثورى يؤمن بأفكار حول مستقبل الجماهير وحرية الشعوب. ومع هذا فهو بالغ العبث لا يهرب من هذا العالم الساخر، له أسلوبه ضد القهر. ويؤلمه أنه مقهور هو والشعب. ما أن يترك لسجيته حتى يمارس الامور السطحية.

يبدو الآن كأنه افرغ مرارته فى جامع الاعقاب الصغير الذى أنساه كل همومه. سعيد لأنه يجلس مع جوهر. فمعه تصبح الاشياء سهلة. وتخف صعوبات الحياة. وتكتسى الكوارث بلباس غريب. ويحس الكردى بطفولته تعود اليه.

– وماذا عن السفر يا سيدي؟

– أفكر فيه يا ولدى.

قال الكردى بحرارة: عليك ان ترحل. فسيكون هذا رائعا.

عندما يحدثه عن السفر يغلق جوهر عينيه. كأن حنينا يجىء من بعيد ويستولى على انتباهه. يحلم بالسفر إلى سوريا. حلم يداعبه منذ زمن طويل. انه الوحيد الذى يمكنه القيام به. لأنه يربطه بمنابع كيفه. فالمخدرات غير ممنوعة فى سوريا. والحشيش ينبت بحرية فى الحقول. ويمكن للانسان ان يزرعه بنفسه. عرف جوهر هذه التفاصيل يوما. ومنذ ذلك الحين لم يكف عن الحلم بالسفر. يبدو هذا البلد المجاور أشبه

بالفردوس. من الظلم أن يظل يعيش هنا. فعلى مسافة ساعات تكون المخدرات مباحة. فكر جوهر فى كل هذا الظلم. لا يمكن ان يغفر للقدر انه ولد خلف هذه الحدود . يشعر أنه لن يسافر أبدا. ويحس احيانا أنه يعيش من اجل هذه الفكرة. سوريا بالنسبة له ليست سوى الحشائش الخضراء التى ستخرجون منها الحشيش. فى ذلك الزمن الصعب الذى استقال فيه من وظيفته. لم يكف هذا المشهد عن مداعبته. قال الكردي:

أراك تزرع حقولا كبيرة بالحشيش.

قال جوهر: يجب ان اذهب. لكن ليس هذا بالامر السهل.

– انها مسألة نقود ياسيدى. اود ان اسمع منك نصيحة.

قال جوهر: تحت أمرك.

تظاهر الكردى بالاهتمام وهو يقول:

– يجب ان أنقذ هذه الفتاة. حتى لو سرقت من أجلها. هل تسمعنى. حتى لو سرقت ما رأيك.

فكر جوهر، انه ليس ضد السرقة، فكل الناس يسرقون. لكن هناك طرقا ووسائل لم تخطر ببال الكردى. انه يحب الشاب. ولا يود ان يراه فى السجن. سوف يفتقده. ثم ان الكردى لا يمكن ان يحمى نفسه فى

السجن. سوف تموت روحه اذا فكر فى الحرية. رأى جوهر ان من الصعب ان يفسر له هذا. قال:

– يدهشنى موظف محترم مثلك.

قال الكردي: الموظف المحترم – مثلما تقول – كُسر قلمه. هل تعرف ان رئيسى كسر قلمى وهو يقول: سيظلم هذا القلم الحكومى البائس معك يا عزيزى الكردى افندى. اعتقد ان الآخرين يعملون خيرا معك وهأنت ترانى. موظفا بلا قلم.

قال جوهر اهنئك على هذا.

على المائدة المجاورة. يجلس شيخام عجوزان فاقدا البصر تماما. يتحدثان عن القيمة الفنية لأحد المساجد الكبيرة. كان أحدهما يعامل الآخر كأنه يرى. فوضع هذا السباب الصارخ حدا للنقاش بينهما فتركا المائدة وذهب كل منهما إلى حال سبيله. نسى الكردى فكرته فى ان يصبح لصا مثلما نسى ان ينتحر. كانت الساعة الثانية ولا يعرف أين يقضى الظهيرة:

– هل تتناول غداءك معى ياسيدي؟

رد جوهر: لا، لا آكل فى مثل هذه الساعة. ثم اننى لست جوعانا. يجب ان يتعاطى المخدر. لم يعد يحتمل. وعليه أن يعثر على يكن بأى طريقة.

– ألم تر يكن اليوم؟

– أجل، رأيته عند الست أمينة عندما ذهبت اليوم لرؤية نايلة. كان نائما على الاريكة فى قاعة الانتظار. لم أشأ ايقاظه. اعتقد أنه قضى الليل هناك.

ارتبك جوهر. عليه ان يلحق ب "يكن" قبل ان يستيقظ من نومه.

– يجب ان اتركك ياعزيزى الكردى. سنتقابل فى المساء.

قال الكردى وقد كسا لهجته بتعبير مثير للرثاء:

– كيف لك ان تتركنى فى حال بائس كهذا؟

– معذرة. أنا مضطر. السلام عليكم!

غادر جوهر المقهى بخطى متعجلة سريعة. دعاه بعض الزبائن للجلوس معهم. لكنه اعتذر لهم بلباقة. وبعد أن سار قليلا بصق النعناع وبدأ يشعر بالغثيان. ففكرة الحشيش القريب منه عششت فى رأسه مرة أخرى. وبخطوات رشيقة عبر الحارات التى تملأها المبانى وشيكة الانهيار.

- 2 -

فجأة. هب عليه ضوء النهار قويا. أوقف انطلاقه كانت عيناه قد اعتادت ظلمة الشرفة المغطاة. الآن. يجد نفسه لا يتكيف أمام ضوء النهار القوى والمثير. يبدو له أشبه بسد منيع. فالحارة التى يسكن فيها ضيقة للغاية. ومكدسة بالقاذورات. والاشخاص الذين يرتكنون بجوار الحائط. أو يقفون بجوار الابواب.

ثابتين فى وقفتهم. ينشرون جمودهم لاثناء عزم المارة. على أبواب الاكواخ تمتلئ الارض بأطفال صغار يعف الذباب على عيونهم. أشبه بحيوانات زاحفة صغيرة. وقد تقرفصت بعض النسوة وهن يغسلن ملابسهن فى طشوت من الصاج. وتقوم أخريات بطهو طعامهن فوق المواقد التى تصدر اصواتا أشبه بالقاطرة. بين الفينة والاخرى يلقين بالشتائم الرنانة لأطفالهن المزعجين.

أمام كل هذه الحوجز المتراكمة. يشعر جوهر بالدوار. ليس عليه سوى أن يخترق هذه الجموع الصماء الصعبة الاختراق كسلسلة جبال عالية. وتدفعه حاجته إلى الحشيش والخوف من فقدانه. فالامر بالنسبة له مسألة مصير. وبدون أن ينتظر. قفز. كما يفعل رجل ضرير وهو يستكمل طريقه دون ان يعير الصرخات واللعنات التى يتلقاها فى طريقه

اهمية. يحس بالهواء ثقيلا كمن حوله. وان المخلفات الآدمية تسد عليه الطريق كأنها تتحرك غير مبالية. لم يكن الماخور بعيدا، ولكن يبدو لجوهر ان المسافة تزداد طولا. سار كأنه نائم. تتكئ يده على عصاه. وتمتد الاخرى نحو الامام كطفل يأخذ حذره. ناداه بائع الفجل باسمه وهو يدعو له ببعض الكلمات الطيبة. لم يعره جوهر انتباها. فأمامه الآن شئ آخر غير اكل الفجل. فقد أنسته هرولته للقاء يكن كل عاداته اليومية.

بعد قليل. رأى المترل من بعيد فأحس بنوع من الاطمئنان. فماخور الست أمينة ليس بالنسبة لجوهر مكانا للمتعة السهلة فهو لم يدخله قط كزبون، لكنه يشغل وظيفة ذات اهمية كبيرة. فهو يصوغ خطابات الست أمينة. ويكتب احيانا بعض الخطابات الغرامية للعاهرات الاميات. ويبدو هذا شئ يتعلق بالكرامة الانسانية. ورغم هذا المظهر المنحط، فقد احتفظ دوما بدور المفكر الثانى الذى حقق أمجاده فى الماضى. فى ذلك العهد الذى درس فيه التاريخ فى اكبر جامعة بالبلاد. ولكن فى تلك الاونة لم يكن هذا بالامر المقبول – بكل هذا الجانب الاكاديمى – ولم تكن سببا لوجوده. ففى هذا الوسط تبدو الحياة قبيحة. فجوهر لم يخدع احدا، ولا يؤمن بكذبات الفلاسفة الكبار التى كان يؤمن بها فى تلك الاونة. هذه الحرية الفكرية التى كانت نصيبه من مهنته الجديدة سببت له سعادة غامرة، سعادة رائعة لا حدود لها. وجد نفسه يترك كل هذا العالم ليعمل فى هذا الماخور بأحد الاحياء الفقيرة مما سبب له متعة كبيرة. كم أبعده هذا عن المنازعات وصراع البشر وأفكارهم حول العقل والحياة. كل هذه الافكار الكبرى التى أعجب بها طيلة سنوات،

تبدو له الان اشبه بحشرات سامة. تجرده من سلطاته. فان قيام المرء بتعليم الحياة دون ان يعيشها أشبه بجريمة الجهل غير المرغوب فيه.

أما هذا العمل الذى قبل به فهو أقل عبودية، لا يتطلب مجهودا. لان مثل هذه الخدمات التى تعد عالية القيمة. تجعل الست أمينة تمنحه من وقت لآخر قطعة معدنية فئة العشرة قروش التى لادخل له سواها. تكفيه كى يعيش. فهو يدفع مبلغا بسيطا كأجرة لغرفته. أما بالنسبة لطعامه. فان تجار الحى يشعرون بالسعادة. وهم يقدمون له ما يسد رمقه. هم يحبون حديثه كثيرا. يعامله البعض كنبى. ينظرون اليه باحترام شديد لكن جوهر لم يعتمد ابدا على مثل هذه المجاملات. هو لا يطلب شيئا ابدا. واذا كان عليه ان يوافق. فان ذلك يحدث بصورة لا تهين مشاعر الذين يقدمون له متطلباته.

توقف، واطلق تنهيدة.

يقع خلف هذا السور المغطى بنباتات كثيفة – التى تخفى كل ما يدور بالمنزل – ذلك الذى يوحى بالثراء. ذو واجهة ضيقة صفراء. يتكون من طابقين. وفناء صغير مبنى بالطوب اللبن، تملئه الركام التى تفصله عن الحارة. دفع جوهر الباب الحديدى. وأمسك عصاه من منتصفها. وضبط طربوشه فوق رأسه. ثم صعد السلم الذى يؤدى إلى الدور الارضى بكل الثقة التى منحه الله اياها. كان الباب مغلقا من الداخل، ترق جوهر مرتين بعصاه وهو يكاد يسمع دقات قلبه. لم يسمع

شيئا كأنما المترل خاو. خيم صمت ثقيل على نفس جوهر، ربما ليس هناك احد لعل يكن قد رحل منذ وقت طويل. انتابه قلق شديد. وتوقفت كل اعضاء جسمه كأنما أصابها شلل مميت..

بعد فترة طويلة فتح الباب، تنهد جوهر. بدت الفتاة التى تقف امامه اشبه بعروس من الحلوى المغلف بالورق المفضض. ترتدى قميصها من الحرير الوردى. ذا أكمام قصيرة. مطرز بخيوط خضراء. وقد بدت علامات الاحمرار الشديدة وقد تغطت سواعدها بسوارات من الذهب. اكسب شعرها الطويل لوجهها جمالا غريبا وحشيا، اشبه بوجوه الرسومات الشعبية التى تغطى جدران المقاهى البلدية. يزيدها الكحل الذى تكسو به عينيها جمالا. يعرفها جوهر. فهى نزيلة جديدة، جاءت منذ فترة قصيرة من قريتها. تقترب من السادسة عشر من عمرها وتدعى أرنبة، منذ ان جاءت وهى محط اعجاب الجميع، ينتظرونها لساعات حتى تنتهى من عملها.

حياها جوهر فابتسمت. عندما انفرجت شفتاها بدت كفتاة صغيرة أكثر منها كامرأة. قالت:

– أنت، ادخل. لا يوجد احد. ذهبت الست أمينة إلى المدينة لعمل بعض المشتريات وأخذت البنات معها.

دخل جوهر الممر الذى يستعمل كقاعة انتظار. وجد نفسه – مرة أخرى – فى مكان ظليم وأحس بتراخ فى اعصابه المشدودة لم يسترح بعد تماما. فهو لم ير يكن فى أى مكان. سألها:

– أليس يكن هنا؟

قالت الفتاة وهى تنظر حولها: كان نائما لتوه فوق الاريكة ثم خرج.

أحس جوهر بالاحباط. ود أن يسألها عما اذا كانت تعرف أين ذهب يكن، لكنه تراجع:

– سوف انتظره، لعله يرجع.

– انتظره، كما تشاء.

– هل انت وحدك هنا؟

– اجل. لم أذهب معهن لاننى وددت ان اغسل شعرى. أسفت اننى لم أذهب. فقد ركبنا عربة حنطور.

بدت مترددة قليلا. ثم دخلت احدى الغرف التى تقع فى الممر. وأغلقت الباب خلفها بينما ظل جوهر وحيدا. ألقى نظرة حوله. وأخذ يفتش عن مقعد. فقد كانت قاعة الانتظار عارية الجدران. بسيطة الاثاث. لا يوجد فيها سوى أريكة فوقها غطاء مزركش وأربعة أو خمسة مقاعد

فوتيل، ومائدة عليها منفضة سجائر. انه نفس الديكور المتواضع للمواخر الموجودة فى الاحياء الشعبية. الآن. وقد انفض المترل من زبائنه. ومن أجوائه المثيرة. ومسرحه الزاهر. أحس جوهر بالاكتئاب. فأطلق تنهيدة واختار لنفسه مقعدا جلس فوقه. أهاج هذا الخواء الكئيب المنبعث فى الصالة جوهر بطريقة ملحوظة. فهو لم يأت قط فى مثل هذه الساعة من النهار. بدا كل شئ فى البيت غريبا وعدوانيا. وضع عصاه بين ساقيه. ودس قطعة من النعنا ع فى فمه وبدأ فى امتصاصها بلذة.

تقلص أحساسه بالحشيش بشكل ملحوظ. وأحس بالراحة وانه موجود فى نفس المكان الذى جاء اليه يكن. فكر فيه بحنان صادق. فالارتباط الذى يربطه به ليس الحشيش وحده. يكن له شيئا من المودة أقرب بتعلق الفرد بالحياة. يكن شاعر بائس. يعيش حياته بلا سعادة أو مجد. يمارس الصعلقة بوعى شديد. دخل السجن عدة مرات بتهمة تعاطى المخدرات هناك حكايات رتيبة تتناولها الافواه للنيل منه. يشكون فى انه خائن أو انه يعطى المعلومات للشرطة حول شركائه فى تعاطى المخدرات. الحقت به شهرته كمرشد أكبر الاذى بين المتعاطين فأصبحوا يحذرونه. لكن من الصعب معرفة الحقيقة فى هذا المدمار. ولم يحاول يكن يوما أن يبرئ نفسه. مهما كان فقد ظلت الخيانة بالنسبة له مسألة مزاج وكرم أخلاق. فكل شئ سواء بالنسبة له. لم يقلل هذا من شعوره نحوه يوما. فهو يتقبل كل التناقضات برجولة وتفاؤل. هو انسان بلا كرامة. وهذا لا يجعل الدنيا تكف عن الدوران. فجوهر يعجب به لأنه يشعر بلذة الحياة: الحياة بلا كرامة. فان يكن المرأ حيا فهذا كاف لجلب السعادة.

ابتسم جوهر وهو يتذكر الكردى. حين يفرط فى متاعبه. ربما أكثر مما هى عليه فى بحثه الدائم عن الكرامة الانسانية: "أهم شئ بالنسبة للانسان هو أن يفتش عن كرامته". كل هؤلاء الناس الذين يبحثون عن كرامة! أى كرامة! فليس تاريخ البشرية سوى كابوس دموى طويل لعباءات من هذا النوع. كأن وجود الانسان حيا ليس كرامة فى حد ذاته. الموتى فقط هم عديمو الكرامة وجوهر لا يحترم سوى الابطال الاحياء. وهؤلاء – بلا شك – يتحرجون فيما يتعلق بمسألة الكرامة.

ليست المشكلة بالنسبة له ان يعود إلى غرفته. فالنائحات لازلنا يطلقنا صرخاتهن. ورؤية هؤلاء النسوة المتوحشات فريسة لمشاعر مرتزقة تصيبه بالرعشة. يحس أن رأسه ثقيلة ومن الصعب أن يحتفظ بعينيه مفتوحتين. فقد غرق المترل فى صمت قاتل دفع جوهر أن يغط فى النوم لم تعد له رغبة فى رؤية يكن. ترك نفسه يغرق فى النوم. أغلق عينيه وهو يحاول ايهام نفسه بالتعب.

مرت فترة طويلة لدرجة أنه لم يسمع الفتاة تفتح الباب:

– هل نمت؟

فتح جوهر عينيه. رأى أرنبة واقفة بلا حراك أمام عتبة الباب. يرسم ضوء النهار المنساب عبر أقمشة رداءها خطوطا على جسدها العارى المنتصب. تردد جوهر لحظة، اعتقد أنه يحلم، ثم قال:

– لا، وانما استريح قليلا.

قالت الفتاة: أود أن تكتب لى خطابا. تقدمت نحوه. منغمسة فى ضوء الباب كأنها تدفع النور المتخافت حولها. وكأنما اثار الظلام عريها. فدعك جوهر عينيه، اثاره هذا المشهد الغريب. وقفت الفتاة امامه. وقد ارتسمت على شفتيها الممزوجتان باحمر الشفاة ابتسامة جذابة. بدا عليها انها فتاة تختلف تماما:

– لمن تريدين أن أكتب خطابا؟

– إلى عمى فى البلدة، لم اكتب اليه منذ جئت هنا. ولعل القلق أصابه.

آثر جوهر الصمت. ليست كتابة خطاب بالشئ السهل فى هذا الوقت، فهو غير قادر على التركيز ولا على أن يمسك قلما. وقد سبق أن رفض طلبا مماثلا من قبل. ظهرت أرنبة كى تقتل شكوكه باسلوبها الخاص وهى تقول:

– سوف أكافئك.

قال جوهر: سأكتب لك الخطاب. هل لديك ما يلزم؟

قام بصعوبة. وتبعها إلى غرفتها. انها غرفة عاهرة غالية الثمن. بها سرير جديدى كبير، وأريكة. ومقعد ودولاب ذو مجراة. شم البودر

والروائح الغالية. غطى السرير بملائة كستنائية. تبدو مستوية. فالعمل لم يبدأ بعد. اسرع جوهر وأغلق النافذة، فاعصابه تبدو ساكنة فى الظلام. وهذا هو الحل الأمثل للهروب من الألم. فتشت أرنبة فى الدولاب، ثم عادت ومعها وريقة وقلم اعطتهما لجوهر. ثم جلست على طرف السرير. وبدأت فى تأمله وقد انتابتها غريزة فضول غريبة.

ترك جوهر جسده يخور فوق الأريكة. ووضع عصاه قريبة منه، ثم تأهب للكتابة، انتظر ان تمليه ما تود كتابته. لكنها بدت كأنها نسيت حضوره. وان الأمر لا يعدو مزاحا. عادت اليها ابتسامة الفتاة الصغيرة المتقلبة.

– هل تود أن ترى يكن؟

رد جوهر: أجل، أريده فى مسألة عمل.

– هل الأمر عاجل؟

– عاجل للغاية، ولكن لايهم. فحتما سيعود.

– أنا أسفة لانه ليس هنا. لعله سيتأخر.

لم يعد جوهر يحتمل ألمه. لقد أثارت كل حميته وهى تنطق باسم يكن. سألها:

– هل تعرفينه جيدا؟

– من؟ يكن. انه كثيرا ما يسليني. يبدو أنه شاعر كما يزعم.

– قال جوهر: انه شاعر كبير.

– غريبة! حدثني. هل يعتاد الشعراء طلب النقود من الفتيات؟

اثار كلاهما انتباهه فجأة. لم يعرف أن يكن ينتهج هذا الاسلوب. فهذا أمر جديد عليه.

– لماذا؟ هل طلب منك نقودا.

أجل. حكى لى قصة تتعلق بأمه. يبدو أنها ماتت وأنه فى حاجة لنقود من أجل مراسيم الدفن. قال أنه يحتفظ بالجثة منذ أسبوع. ما رأيك؟

حاول جوهر أن يطلق ضحكته – رغم مأساوية الموقف – يعرف ان الحكاية ملفقة. وان قصص يكن الخيالية يمكنها ان تبتز النقود من معجبيه. فعندما يتعلق الأمر بالنقود فعلى خياله أن يلتهب. خاصة اذا كان فى الأمر شراء حشيش.

– وهل أعطيتينه؟

– ردت الفتاة: لست غبية، فأنا أرسل كل ما أكسب لعمى الذى ربانى. وقد حذرونى من النصابين.

قال جوهر: انت فتاة جادة.

قالت الفتاة ضاحكة: هل تسخر مني؟

– ابدا. أنا واضح.

فكر جوهر فى المشاعر المتقدة التى أوقظت فيه دائما ابعاد حياة يكن التى جعلته يغرق فى أدق تفاصيل حيوات المجانين. فوراء هذه القصة توجد حقيقة مؤلمة يصعب تجاهلها. لقد وصل يكن إلى حد أنه يريد توفير النقود فوق أشلاء أمه. وهذا لا يسبب له أى دهشة من أى نوع. يتخيله يفعل اشياء أكثر جنونا. وهذا يعنى أنه يبحث عن مصادره. فهو محظوظ لأنه يفتقد الحشيش دائما عنده. وجوهر يحسده لهذا الاكتشاف. ود جوهر أن يغادر الغرفة. وأن يهرول بحثا عن يكن. لكنه لم يفعل شيئا.

نظر تجاه الصغيرة.

كانت جالسة على طرف السرير، وقد باعدت بين ساقيها، لفت مئزرها حول جسدها، وبرز صدرها الناهد عبر القماش الحريرى كأنه الرمان الناضج. تأملها جوهر بنظرة ثاقبة. متأملا جمال الفتاة. ترتسم ابتسامة تائهة على شفتيها المصبوغتين فتبدو كأنها تلقيه فى شباكها. اختنق جوهر. فاقتراب مثل هذا الجسد البض قد يشعل فيه رغبة بالغة الحدة. فمنذ زمن طويل لم يرغب فى امرأة. وقطع كل اتصالاته مع كل الخلق. وأصبحت حياته مكرسة للأشياء الأكثر بساطة، لم تكن خاضعة يوما

لمقياس العواطف، استمرت بلا ألم. أشبه بحلم صاف. لا حاجة للمخدر. ومن جديد طرقت حاجته للمخدر داخل وعيه فأردته ضعيفا، كم من الوقت عليه أن ينتظر؟ يشعر ان أعضاءه سوف تخونه، وستصبح رخوة بلا مقاومة. ويلزمه مجهود شاق كى يتغلب على نفسه، وأن يسيطر على الرغبة التى تجمح فى جسده، وعليه أن يقتل شكوكه بسرعة.

– متى طلب النقود؟

ردت: هذا الصباح. تحادثنا معا قليلا. بدا حزينا وضعيفا.

لم يساوره الشك ف "يكن" لايغدو حزينا وضعيفا. الا عندما يفتقد المخدرات. انها الحالة الوحيدة التى يضعف فيها تفاؤله. ود جوهر أن يبعد اليأس عنه، لكن الثقة التى أولاها ل "يكن" قد انقذته. وعلى كل فسوف يتصرف "يكن" من أجل توفير مخدره. فله ألف طريقة للتصرف، وجوهر يؤمن بالمعجزات. ليست المعجزات العظيمة، لكنها المعجزات العادية البسيطة الحياتية والمخدرات هى احدى المعجزات.

– ماذا تودين أن أكتب إلى عمك؟

تخلت أرنبة عن ابتسامتها وسلوكها كفتاة صغيرة. كست وجهها بملامح الجدية والعمق وقالت:

ما يكتب فى مثل هذه الحالات. قل له أننى على ما يرام، وأننى معجبة بهذا المكان، وأعمل كثيرا، أعتقد أن هذا يكفى.

أخفض جوهر رأسه وبدأ فى الكتابة. لكنه فى الحقيقة لم يستطع أن يكتب شيئا. وضع الوريقة فوق ركبتيه، وأمسك القلم بأصابع مرتجفة. أفعم أفكاره كى يجد جملة يبدأ بها. فهذا الرجل ليس عمها، كيف لعاهرة أن تكتب لعمها؟ تردد جوهر بين صياغات عديدة. فهو لم يعرف قط كيف يمكن تبادل المشاعر العائلية.

رفع رأسه مرة أخرى ونظر إلى الفتاة. فالرغبة التى انتاباه منذ لحظة لم تترك فيه أى أثر، فقد هذا الجسد المنساب فوق الفراش الأخضر بصورة مثيرة جاذبيته. واستولى عليه خاطر هو السوارات الذهبية التى تحوط ذراعى الفتاة العاريين.

تمثل السوارات الذهبية بالنسبة له شعورا خاصا، لم يبعد ناظريه عنها. وخلال بضع ثوان أحس بالاضطراب. وضع يده فوق جبهته وهو يرتجف. مقاوما كل رغباته ضد هذه الأفكار الكريهة التى تجثم عليه رغما عنه. حاول أن يطردها عن تفكيره بيأس واضح، لكنها قاومت كل ابتهالاته، فهذا الذهب يساوى كمية لابأس بها من المخدرات، وتضمن له أن يعيش فى مزاج عال شهورا طويلة، ربما لسنوات. حاول جوهر ان يحدد كمية المخدرات التى يمكن أن يشتريها بمثل هذه الثروة، لكن جسامة موقفه أشلته، فتوقف عن حساباته وعاوده حلم السفر. لم يعد أملا بعيدا، أصبح الآن أكثر قربا. أصبح السفر إلى سوريا حقيقة ملموسة. تخيل أدق تفاصيل الرحلة إلى بلاد الاحلام حيث ينمو الحشيش فى الحقول كالحشائش. غزت الغواية مخه بصور من العالم الآخر، ورأى

نفسه يرتمى على الفتاة وينزع منها سوارالها. فى نفس اللحظة التى حركت أرنبة ذراعيها وهى تهز الحلى الذهبية وسط صمت الغرفة. خرج فجأة من أحلامه وشرع فى الكتابة بكل حماس.

انتاب أرنبة زهو. لم تشك لحظة فى موقف جوهر الغريب. تعرف أنها حسناء. وبدا لها ارتباك الرجل بسبب تلك الرغبة التى ولدتها فيه. فتاة قروية وساذجة، لاتعرف شيئا بالمرة ترى ان رغبة جوهر هى الشئ الوحيد لارضائه وعليها ان تكافئه.

ظل جوهر يكتب وهو يحاول ان يتماسك. حتى العبارات التقليدية لم يستطع صياغتها، انتابه قلق شديد، غرق لحظة فى محاولة عبثية لابعاد العنف عن ذهنه. فالعنف هو الشئ الوحيد الذى لايخطر بباله. كيف حدث هذا؟ أحس انه ليس جوهر. وان شخصا آخر يدفعه فى مغامرة لارتكاب حماقة تنخر فى نفسه.

– لاتنس أن تخبره أننى سأرسل له نقودا قريبا.

اختلج جوهر وهو لايعيرها انتباها، تسربت الفتاة قريبة منه فوق الاريكة. أربكه وجودها إلى جواره. تملكه خوف وقال:

– أى نقود؟

– ألا تعرف أى نقود؟

– بالطبع. معذرة، فأنا مرتبك قليلا.

لم تتصور أرنبة أن سحرها يمكن أن يثير جنون رجل إلى هذا الحد، دفعها غرورها إلى المزيد. فبعد الظهيرة أعلن عن نزهة ممتعة فى عربة حنطور مع الست أمينة وبنات الماخور. وكم أحست بالاسف لحظة.أما الآن فانها تجد هذا أفضل. اقتربت من جوهر وأحنت رأسها تحاول. أن ترى الرسالة من أعلى كتفه، داعبت وجنته متعمدة. وعندما ارتبكت كل أعضائه أدركت انه بلغ النشوة. فاطلقت ضحكة طفولية مليئة بالعصبية، وقالت:

– أنت تكتب جيدا، اذن فقد ذهبت إلى المدرسة.

رد دون أن ينظر اليها: أجل، وانت. ألم تذهبى إلى المدرسة؟

قالت أرنبة بصوت مليء بالازدراء:

– لماذا أذهب إلى المدرسة؟ أنا غانية.

قال جوهر: أنت على حق. لم أسمع كلاما مماثلا من قبل.

– انت تسخر دائما منى، ولايهمك، فانت لطيف.

اقترب الخطر أكثر. تملكه نوع من الذهول ازاء جاذبية السوارات الذهبية، لم يعر لمسات الفتاة انتباها. فهذه السوارات تمثل بالنسبة له قيمة لاتقدر بثمن، انها تمثل المخدرات التى يفتقدها منذ الصباح.

أنهى رسالته بسرعة وسألها: هل تعرفين التوقيع؟

قالت: لا، اكتب اسمى فقط. اسمى أرنبة.

قال جوهر: أعرف، وهو اسم جميل.

وقع الرسالة. سأل الفتاة عن عنوان عمها ودونه على المظروف. لقد انتهى الآن، ويستطيع ان يذهب، ويهرب من هذا الاغراء الأبدى. قال:

– هاك الخطاب.

– اشكرك. احتفظ به معك. ضعه فى صندوق البريد. سأعطيك ثمن الطابع..

لم يجرؤ غلى الحركة. لايعرف أى رباط يربطه بالأريكة. يموت من الخوف وهو يسمع خشخشة السوارات، كأنما ارتبط وجوده بهذه الضجة المثيرة. شك لحظة ان الفتاة تتعمد هز ذراعيها. هل لاحظت شيئا؟ لا. سوف تملأ الحى بصراخها، هى ليست بالغة القوة كى تتسلى بمثل هذه اللعبة.

قامت أرنبة، وسارت فى الغرفة. ثم انفجرت ضاحكة واقتربت من جوهر قائلة:

– يمكنك اذا شئت.

أحس أنه يغرق، مثلما حدث فى حلم الصباح. وأن فيضان النهر يغرقه فى أعماقه. حاول يائسا أن يسبح، أن ينقذ شيئا من صفائه. لكن بلا جدوى. لاشئ يمكنه أن يتركه فى سلام. تملكته رغبة متوحشة أن يمتلك السوارات. مقاوما وعيه. ورأى – داخل هذيانه وخلف هذه السوارات – حقول الحشيش الواسعة المنبسطة بلا نهاية تحت السماء. كانت الرؤية حادة وسريعة. توقف جوهر عن التنفس. فكر أنه سيرتكب جريمة. لم ير أى وسيلة أخرى كى يخلصها من هذه السوارات. ملأه هذا اليقين بهدوء مخيف.

علا القلق وجه العاهرة الشابة. لم تعد تبتسم ولأول مرة ألقت على جوهر نظرة يملأها الشك وبدت أسباب هذه الرغبة التى لم تفهمها مثيرة للقلق. لكن لم يدم قلقها طويلا. فببطء شديد خلعت مئزرها وألقت بنفسها فوق المقعد. وبدت رائعة أمام عينى جوهر الزائغتين. اقتربت منه وأمسكت ذراعه وأرادت أن تجذبه.

– تعال. هيا، بسرعة.

خلص جوهر نفسه منها، بينما أصدرت السوارات ضجة أشبه بالرعد، وأحس بقلبه يتوقف عن الخفقان. انسال على جسده عرق بارد. ارتعد، قام فجأة وسحب الفتاة ناحية السرير وهجم عليها. أطبق يديه على عنقها قبل أن تتمكن من الصراخ. فتحت عينيها الواسعتين اللتين اعترتهما دهشة غريبة. لم تفهم ماذا يحدث. لم يحتمل جوهر نظرتها. ضغط

بأصابعه بكل ما يملك من قوى. مدت الفتاة ساقيها نحو الأمام فى حركة دفاع أخيرة. أغلق جوهر عينيه، ران صمت طويل. ملئ بالظلمات. بينما استمر فى خنقها. حتى سقطت رأس الفتاة محدثة ضجة.

لقد ماتت.

قام بصعوبة وهو يلهث. تمدد جسد أرنبة العارى بطول السرير فى وضع يثير الرثاء. عليه الآن أن يخرج السوارات. وهذا هو أصعب ما فى الأمر. رفع جوهر ذراع الفتاة وأمسك احدى السوارات. وأراد أن يزلقها من معصمها. ألا أنه أحس بصدمة. استرد وعيه فجأة وأطلق صرخة مليئة بالألم.

سمع صوتا مكتوما. فالسوارات ليست سوى حلى مزيفة. انها ليست ذهب. وجوهر يعرف ذلك دوما. ويمكن لأى طفل صغير أن يميزها. كيف ارتكب خطأ جسيما كهذا؟ لم يجد تفسيرا. ربما أن هذه السوارات تساوى قروشا زهيدة اشترى بثمنها جريمة قتل.

انه الآن بالغ الهدوء، فقد تخلص تماما من الصدمة، ترك جثة الفتاة، استعاد طربوشه الذى سقط فوق السرير ووضع الرسالة فى جيبه ثم توجه نحو الباب. كانت قاعة الانتظار خاوية ومظلمة تماما. يبدو أنه لم يأت أحد أثناء هذه الفترة. نزل جوهر السلم ببطء، وخرج إلى الحارة وقد بدا طبيعيا، حيا أحد المارة الذى لايعرفه بهزة بسيطة من رأسه.

بعد كل هذه الحكاية. فهو لم يعثر بعد على يكن. أين يختبئ يكن اذن؟ هذا هو السؤال الذى يؤرقه طويلا.

- 3 -

تسلل الضوء من مصباح الغاز حتى أطراف المائدة. حاول يكن بعينيه الضعيفتين أن يمسك وجه أمه القابع فى الظلام، لايرى منها سوى يديها العجفاوتين. وهى تر فى قميصا رجاليا، عليها أن تنجز بعض العمل من أجل أسرة برجوازية فى المدينة. يشعر باهانة لأن أمه تمارس مثل هذا العمل، خاصة أن الاهانة تكسوها بالحزن،

بالمهابة والجدية فى حركاتها، كأنها تبدع عالما غامضا وأفضل. تبدو كأنها ستنقذ بهذه الأكذوبة أسطورة البؤس الجدير بالوقار، يالها من خدعة، ماذا يدفعه هذا المساء كى ينظر إلى وجه أمه. لعله يشبه وجهه. فتح عينيه باتساعهما. حملق فى هالة الضوء الساقطة من المصباح، لاشئ، ظل وجه أمه غامضا، ينادى فى أعماقه، حاول أن يتذكر ملامحها، من الصعب بالنسبة له أن يحدد الصورة بالضبط. كأنها ثقب أسود لم ينظر اليه طيلة هذه السنوات. وقف عاجزا أمام ذاكرته التى أصابها عدم تام، أراد أن يطلب منها أن تقترب قليلا ناحية الضوء، لكنه تراجع. فهو لايود أن يزعجها. ينظر اليها بود "لعلها كانت بالغة الجمال. أما أنا فأشبه أبي" لايذكر أباه جيدا، وهذا أيضا شئ غريب، هؤلاء الناس أتو به إلى الدنيا. وعاش معهم سنوات طويلة، يبدو الآن أنه لم يراهما عن قرب.

لماذا يهتم فى ذلك المساء بمسألة دمامته، فهو لم يعتد النظر فى المرأة. ربما يخاف "هل بدأت أخاف فجأة" ضحك ساخرا مرة أخرى. الاقذار! انهم يسخرون منى فى الصحف والمجلات الأدبية التى تصدر فى العاصمة. أصبح موضع سخرية كل الشرق المثقف. هؤلاء الصحفيون الأقذار لايتركونه فى حاله قط، يمسون دائما شيئا خاصا فيه عندما يكتبون عن دمامته فى مقالاتهم القذرة. نشر أحد رسامى الكاريكاتور صورته تحت عنوان "القبح مجسدا" واجه يكن هذا الهجوم بضعف وخوار، كأنه طفل صغير. هل يتصور هؤلاء الأغبياء أنهم قادرون على وضعه داخل هذا الاطار؟ انهم لايعرفونه.

لعل هذا يمكن ان يدور فى كل مكان، ولكن ليس أمام قاض فى محكمة. هناك وجه نفسه ضعيفا غير قادر على الدفاع عن نفسه. حتى محاموه المساكين عجزوا عن الدفاع عنه. فقدوا كرامتهم، أصابهم الخرس فجأة. تخبطوا فى دفاعهم دون أن ينظروا اليه. يالهم من عصابة أفاقين. يحتقرهم أكثر من الآخرين. عدا واحدا منهم ترك له ذكرى لاتنسى، رجل شجاع على خلق عال، يتكلم بوجهه كما يفعل العباقرة. وطول ساعة لم يضحك القاضى خلالها. بدا كمن يكتم ضحكه كأنه غير قادر على الفهم. انتهى المحامى وسط صمت مدهش. لم يصدق القاضى أذنية، نظر حوله كأنه خارج من حلم واسترد وعيه أخيرا ونطق بالحكم.

كان الحكم هذه المرة أشد قسوة من المعتاد، ثمانية أشهر، لكن يكن كان سعيدا وبدأ يتصرف كأن شيطانا مسه.

لم يكن السجن سيئا بالنسبة لروحه القادرة على تقبل كل الظروف. كان نوعا من الراحة بعد تعب من حياة الصعلكة. يتذكر مكتبه وهو يجلس خلفه. هذه الوظيفة ذات الأهمية أتاحت له بعضا من حرية الحركة. يتصرف كمدير كبير. لاحدود لمقدرته. يستقبل التهانئ. كثيرا. فبمجرد وصوله إلى المبنى القبيح أثار قلق الناس. وسرعان ما قوبل بعاصفة من الفرحة. يملأ المكان بنكاته وروحه المرحة. حتى السجانون فقدوا عجرفتهم المعهودة، تركوه يتصرف كما يشاء، أما مدير السجن – الذى طالما أعجب باشعاره – فقد كان يجد المتعة فى الحديث معه. استقبله فى مكتبه استقبال وزير. وهكذا كانت حياة يكن فى السجن أشبه بحياته خارجه، وربما أفضل. كل ما يطلبه يجده، الطعام والراحة وربما أكثر، أصبحت الحرية مفهوما مجردا. حتى الحشيش لا يخشى شيئا من ناحيته فهو موجود فى ردهات السجن مثلما يحدث فى المدينة. ويمكن تداوله بألف وسيلة، خاصة النقود.

أكسبته شهرته كشاعر مكانة مرموقة بين زملائه الأميين. فهو الذى زاوج المساجين فيما بينهم. حمته دمامته من الخطر الحقيقى. كان يجب أن يكون ضريرا حتى ينغمس فى الملذات. ولحسن الحظ لم يكن هناك ضرير فى السجن.

من جديد، ود أن يخترق سر هذا الوجه الذى يختفى فى الظل. يتلاشى كل شئ أمام نظره الضعيف. هل يبعد المصباح؟ خلقت هذه النقطة المضيئة فيما بينهما صحراء لاحدود لها، عرقص قدميه فوق المقعد

وأطلق آهة طفل مريض. لم يحدث تغيير على الجانب الآخر من المائدة فهى لم تتحرك حتى الآن.

قال مغالبا نفسه:

– أماه..

ظلت صامتة، لم يستطع أن يخلصها من المعاناة والتعب الذى انغمست فيهما، استمرت فى رتق القميص. ياللعجوز المسكين التى تمارس عملا حقيرا لكنه شريف. يؤكد كل سلوكها ان هناك مهنا شريفة. كم أعطته دروسًا أخلاقية. لكن من تتصوره؟

– أماه.

لاحظ فجأة توقف الأصابع. لاتزال ابرة مغروسة فى القميص. يسيطر على الغرفة صمت مميت. وتلزم الأم الصمت دومًا، يقال أنها تخشى الكلام حتى لاتفقد سحرها. خرجت أخيرا من صمتها وقالت:

– ماذا؟

– اخبرينى. هل كنت جميلا وأنا صغير؟

ياللسؤال الخبيث! يعرف أنه يثير موضوعا مرعبا. ماذا ستفعل؟ هل تبكى أم ترد؟ لا يمكن أن يحدث الألم الذى يسببه. فهو لايرى سوى يديها العجفاوتين، موضوعتين الآن على حافة المائدة. أراد أن يربكها

أكثر، تقدم بوجهه من ضوء المصباح كى يمكنه أن يترع ذلك القناع الآلامى البائس. انها الأن غير قادرة على الحراك، أمسكها، ابتسم وهو يكشف أسنانه الطويلة التى أكسبت وجهه ملمحًا وحشيًا، فعلا، لايوجد أفضل من اسعاد قلب أم.

بدت كأنها تخرج من غفلة طويلة، نظرت الى ابنها بحب وحنان. رجل فى الخامسة والثلاثين أضاع حياته كطفل. أكثر وعيا، وأكثر متعة من طفل. أبدت ترددا فى أن يكن قد يتصرف برقة وهى تفكر: "عليها ان تبذل أقصى ما بوسعها"، لايشك لحظة فى ردها:

– ماذا يا أمي؟

قالت: أجل. كنت جميلا.

– مستحيل. كيف تغيرت الى هذه الدرجة؟

قالت: لم تتغير.

لعلها مجنونة. حاول يكن أن ينظر الى المآة. آمن للحظة بالمعجزة التى شوهت وجهه. لا. الأمر أكثر بساطة من ذلك. عليه ان يعرف ان عينى أمه أشبه بعيون المها. وان هذا ليس وهما ولاشفقة. انه رد من أم حانية. أحس انها سعيدة بردها. وانها تؤمن به بكل صدق.

– وأبي؟

– ماذا عن أبيك؟

– هل كان جميلا؟

– كان أبوك رجلا نبيلا.

– يالها من نكتة!

غرق يكن فى الفرح. كم من مرة قالت أن أباه كان رجلا شريفًا. ومع ذلك فغلطتهما انهما أورثاه التعاسة. وريث أسرة كبيرة تملك عقارات. بذر نقوده فى القمار وطقوس العربدة. حين مات لم يترك سوى الديون. كان يكن فى تلك الآونة شابا صغيرا، لم يؤثر فيه موت الأب كثيرا، فهو لم يعرف الحياة التى عرفها أبوه، رجل شرقى حقا.

لم تكلمه أمه أبدًا عنه، ترى أن هذا موضوع لا يليق الكلام فيه. فيجب الا يدان زوجها. أمنت أن معاناتها من زوجها نوع من القدر المحتوم تحسد عليه. لم يسمعها يكن تقول عنه كلمة سيئة يوما. تردد أن زوجها رجل شريف. فكر: "تغفر الثروة كل شئ، تعجبها حماقاتى لأنهن يحببن أجواء المآسي" مسكينة. ليس لأحد الحق أن يكون سئ السلوك، هذه البديهة هى الحقيقة الوحيدة على الأرض بالنسبة لها.

وكى تستمر، فانها تمارس الآن هذا العمل المثير للخزى: ترفأ ملابس الأسر الثرية التى ترثى لحالها. مرت كل سنوات الكفاح المرير مع هذا الابن العاق بلا جدوى. لم تغير من رأيها حول سلوك زوجها، ألم

يكن رجلا ثريا وقورا؟ وهذا يغفر له كل شئ. هذا النوع من الوفاء صعب الوجود بالنسبة ل"يكن". انه الشئ الوحيد الذى يجعلها تتعلق بالحياة. فذكرى الميت ليس لها هدف آخر سوى مزج هذا الاحترام الواجب بالرثاء.

فى هذه الغرفة التى تقع فى القبو، ذات البلاط الكبير، التى غطت الرطوبة حوائطها تتمثل عفونة الطبقة البرجوازية رغم تفكك قطع الأثاث، يبدو الفقر ماثلا، بين هذه الأشياء الغريبة الغارقة فى الظلال يوجد دولاب بجوار الحائط نجحت نقوشه فى انقاذه من التسوس، يوحى الدولاب بجو من الغموض يثقل فوق يكن. يفضل أن ينام فى الشارع بدلا من النوم فى هذا المسكن الفقير الذى ينذر بالوقار. يبدو أن الدولاب – المكوم فى الظلام – يهدده بارتفاع قامته. يرتعد يكن فالجو بارد. ولاشئ يمكن أن يدفئ هذا القبو المثلج. حتى رشفة الكحول التى ارتشفها. أحس بالحزن يغزوه. انه يثقل عليه عندما يجئ لزيارة أمه. البارعة فى فن تقطير الحزن. تنسج الحزن مثلما ينسج العنكبوت خيوطه.

حمحم يكن كى يتخلص من البرد، أحس بساقيه ترتعدان. وان شيئا ناعما يوخزه، أين يختفى القط؟ انحنى كى يمسكه وضعه فوق وركيه وبدأ فى مداعبة شعره. ارتجف الحيوان الصغير. وهو ينظر اليه بحدة. تسلى يكن يوما بأن أعطاه قطعة من الحشيش. ومن يومها. وكلما اتيحت له الفرصة يكرر نفس الشئ نفسه، انه بالتأكيد القط الوحيد الذى تناول مخدرات. بدأ فى العصبية وود لو خربش. وجد يكن نفسه فى

موقف حساس. فهو لايملك سوى قطعة صغيرة من الحشيش. ولن يقتسمها مع القط. فلكل مداعبة حدودها. لكن كيف يجعله يفهم.

تخلص من القط، ومن جديد نظر الى أمه. التى استسلمت لحملها الداخلى. لعلها تحلم أن تعيش مع ابنها – ابن شريف ويعمل – يكمن وجودا فى كرامته واحترام القوانين. يأمل يكن هذا الحلم ويمكنه أن يخمنه ويجسد صوره. فكر فى نفسه وعبقريته. اذا شكت يوما أنه سيبدأ فى ادخارٍ النقود من أجل دفنها. حاول ان يبلغها بذلك. لكن هل تلعنه؟ لم تمنحه هذا الامتياز يوما، لعنة أم! لم يستطع يكن أن يمنع نفسه من الضحك.

توقفت فجأة عن التطريز. علتها الدهشة وبدت كأنما صدمها شئ:

– أراك تضحك يابني!

– هل تريدين أن أبكي؟

– ألست خجولا من سخريتك من حالتي؟

– أبدا ياأمى، ضحكت من خاطرة جالت بى.

قالت بمرارة: لا استطيع أن أفهم. كيف يمكنك ان تضحك فى هذا البيت البائس؟

لايمكن أبدا أن تغفر له سخريته من حالتها، أنه لا يأخذ الأمور بجدية، أرادت أن تراه خجولا، يعيش حياته فى ملل. فالحال بائس، وكيف يسخر منه؟

الآن، حان الوقت الذهاب. بدأ الجو فى الاختناق. غاص فى مقعده. وانغمس أكثر فى الظلام، ضحك ساخرا. فحتى الآن لم يقبل على الشئ الصعب بعد. قال بصوت أجهش:

– أمي!

طالما أنها لاتود أن تراه يضحك. فعليه ان يبكي:

– ماذا تود أيضا؟

– الا تعطينى خمسة قروش يا أمي؟

أطلقت تنهيدة. وقالت:

– أيضا! متى ستفهم اننى فقيرة؟

– أعرف ياأمي!

– يبدو أنك لاتعرف.

– لاأعرف. لقد طلبت منك كثيرا.

– أيها المجنون. ياالهى. أقول أن اباك كان رجلا شريفا للغاية!

هذا شئ مثير للرثاء، لقد عرف يكن هذه الحدوتة، وعليه ان يسمعها كاملة. وأن يفاوض حتى النهاية:

– اتركى أبى فى حاله. أريد هذه النقود.

– ليس معى سوى أجرة المترل. اذا أردت أن تأكل. فهناك شوربة عدس.

يتناول هذا الحساء. أبدا من الأفضل أن يموت جوعا. عن تناول هذا الحساء الذى تطهوه أمه. الذى يعد أحسن ما تقدمه. تفوح منه الرائحة العفنة التى تنم عن حالهم. لايمكنه ان يأكل أبدا. يمكن أن يتحمل كل الاهانات، الا العدس، ثم ان الأكل لايهمه كثيرا. قال:

– هو غير صالح للأكل.

– ليس عندى فراخ. للأسف كى أقدمها لك.

– لست أبالى بالفراخ ياأمى. كما اننى لست جوعانا.

تعرف أنه يتعاطى الحشيش. لكنها لا يمكن ان تصدق، فهى تفضل أن تناقش أشياء عبثية مثل هذا الحساء التى تريده ان يلتهمه عنوة، فيم تفكر، تصورت انه يريد النقود كى يشترى حشيشا. ذكره هذا بما حدث بعد الظهيرة. أصابته الرعشة. قابله شرطى فى الشارع. وسلب منه قطعة

حشيش كبيرة بادعاء تفتيشه. لم يستطع الدفاع عن نفسه. هؤلاء الشرطة الملاعين، يأخذون كل هذا الحشيش ويغرقونه فى النهر! غباء. عليهم اعادة بيعه فى السوق وبسعر أعلى.

من الواضح أنه بعيدا عن الحشيش والطعام، فالانسان فى حاجة الى بعض المصروف. فوضعه كمتطفل وصعلوك لا يمنع يكن ان يكون مسرفا. بل على العكس ربما ورث عن أبيه حب المصروف الكبير. يجب أن يدفع بسخاء للآخرين. وأن يساعد من هم أفقر منه. جوهر على سبيل المثال يعرف ان جوهر صفر اليدين دائما. وأنه لايطلب شيئا أبدا، مسألة كرامة مع بعض الفرق. يشعر أن عليه ومساعدته فى وضعه الراهن. وأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يخفى بها دمامته الخلقية والجسدية. الوجود الحقيقى الذى يشعر فيه بالنغمة الصحيحة. يعامل البشر كما هم، فليس جوهر مصلحا ولا داعية، هذه الخصوصية التى عرفها عنه لم يجدها فى أحد. فأغلب الناس يميل الى اسداء النصائح، بالضبط مثل أمه، أو فى الواقع فان أمه تشبه أغلب الناس.

يخشى ان تسخر أمه منه، لا، لم يكن شريرا معها. تدافع عنه بطريقتها وببعض المراعاة. انها الأكثر قوة. لا توجد قوة فى الدنيا يمكن أن تزعزع من ايمانها بالامها. غارقة فى حزنها. لاتفهم أنه يمكن ان تضحك رغم كل التعقيدات الهائلة.

يعرف انه سوف يقنعها باعطائه نقود. تحاول أن تجعله قريبا منها، تؤمن بالعدوى. وان كل هذا الحب والعاطفة الأسرية ليس لها من هدف سوى ان تجذبه الى متطلبات الفقر. ياللمرأة المسكينة. لاتعرف أنها ولدت صعلوكا متفائلا.

يكفى هذا الآن. لقد منحها الوقت الكافى.

ظلت بلا حراك فترة طويلة. تحاول أن تتماسك. ستفقده يوما. هذا الولد العاق. لكنه الرباط الوحيد الذى يربطها بالأحياء. لن تنجح يوما أن تجعله يمشى فى الطريق الصحيح. يتزلق دائما من أصابعها. ويصعب الامساك به. سقط بين براثن الشيطان، الشئ الوحيد الذى تحتفظ به له هو ضحكته. هذه الضجة الأشبه بسفينة وسط قربها. لاتستطيع أن تفهم هذا الاحساس أمام ما يبدو لها الكرامة الوحيدة فى العالم. وهو الامتثال للأحزان. تسكن فى هذا المكان الحقير منذ أمد طويل وهى تسمع ضحكاته أكثر رعبا من صرخة انسان ثورى. يمكن ان يتقبل الثورى. ولايمكن قبول السخرية.

لم تشك ابدًا أنه لاجدوى من كل هذه التضحيات. وان النقود هى أقل ما يمكن أن تقدمه، لقد حرمت نفسها لأجله. لم يبق أمامها سوى حياتها كى تمنحه اياها. لماذا لا يأخذ حياتها اذن؟ واذا جاء يوما كى يقتلها فانها ستنتظره بكل ما تملك. قالت:

– اعتقد أنك ستقتلنى يوما.

– لا، يا أمى، يالها من فكرة مأساوية! فالحياة أسهل من هذا. أعطنى النقود وسوف أذهب، أؤكد لك أنه لا مأساة هناك. أين ترين المأساة؟ أنت الوحيدة التى تؤمنين ان الدنيا شئ جاد، الدنيا مبهجة يا أمى. وعليك ان تخرجى وتتنزهى قليلا.

نظرت اليه غير مندهشة، كأنها سمعت كلاما مجنونا اعتادت سماعه منذ أمد طويل. ماذا يفعل. يا الهى. أطلقت تنهيدة وقامت مترددة. كأنها تستند على عكاز خفى. غاصت فى ظلام الغرفة. رآها يكن بصعوبة. عادت بعد لحظة. ووضعت قطعة معدنية فوق المائدة.

– خذ، واشرب من دمى.

يا للمرأة المتزمتة. خسارة ان العالم لم يشهد مثل هذا المشهد التمثيلى. مشهد حقيقى يجمع بين طفل عاق وأمه. يجعل هذه الدموع تتساقط. ضحك يكن وأمسك النقود بين يديه ووضعها فى جيبه، وتأهب للخروج.

– سلام عليك ياأمى.

قالت: اجلس لتأكل هناك حساء لذيذ.

– لست جوعانا الليلة. لكننى أعدك أن أعود مرة أخرى لأصحبك الى مطعم فاخر. ثم نذهب الى ناد ليلى، الا يعجبك الذهاب الى ناد ليلى لتشاهدى الراقصات. سترين كم أن الحياة حلوة.

خرج من القبو. كأنه غريق خارج من حفرة مليئة بانطين، تنفس هواء المساء بمتعة، أخيرا تحرر من وقاره القذر! فكل شئ يدور فى هذه الغرفة مزيف تماما ويكسب الفرحة حزنا. يالهى. لماذا تقتصر السعادة على الأغنياء وحدهم؟ ذلك خطأ أساسى فالسعادة موجودة حتى فى السجن. لقد عرفها يكن هناك أكثر من أى مكان آخر. رغم ان هذه الحقيقة البالغة البساطة أصبحت دافعا مريبا فى عينى أمه، انها لاترى فيه سوى الخسة والخمول. وتتحدى كل متاع الدنيا، أليس هذا اهانة لذاتها؟. بالتأكيد توجد خلف هذه المتعة معاناة حقيقية. لايحاول أن ينكرها. بل انه بالغ الحساسية تجاهها. حتى اذا لم توظف نفسها فى احتواء كل هذه الشكليات من الأفكار الكئيبة. فسوف تخفق فيه كل مشاعر الحنان، وستمنعه ان يحبها ببساطة. ستضطره أن يدافع عن نفسه ضد أشباح الفقر التى تعرفه منذ أمد طويل.

انسل يكن عبر الشوارع، وهو يحس ان هذه الآلام تطارده بمشاعر مسمومة، كمن يريد ظله القصير الحاد ومشيته المتعجلة كأنها تصنع منه طيرا جارحا ضخما فى هذا الحى الذى يمثل منطقة محايدة بين الأحياء الشعبية والأحياء الأفرنجية. قليلا ما يمر بعض المارة، كأنهم يلوذون بالفرار، يتناثرون فى الليل. مثل الاشخاص الذين يراهم فى الكواليس. ابطأ يكن خطاه وهو يفكر فى الاتجاه الذى عليه أن يسلكه. عليه أن يقوم بلفة كبيرة كى يصل الى حى الأزهر دون ان يجتاز الحى الأفرنجى. على كل فعليه الا يغامر بالذهاب الى الشوارع الواسعة المكتظة بالناس. الخاوية تماما من أى حياة حقيقية. يكره هذه العمارات الضخمة الباردة.

التى تشبه المقابر الكبيرة. وهذه الواجهات المضاءة بطريقة تثير النفور. التى تملأها تناقضات عديدة، ليست هناك واجهة واحدة ضرورية، فضلا الها سهلة الامداد، يجد نفسه دائما فى مدينة غريبة تختلف عاداها عن عادته، يلتفت الناس حول أنفسهم عند أول كلمة أو باردة. وتنظم الشرطة كل شئ، يجب أن يظل بعيدا عن هذا الثراء الفاحش، ضد من؟ وضد ماذا؟ هو لايرى أى الأسباب تدفع الى الخوف، لأهم يغلقون أنفسهم فى تراثهم، حتى لا يفكر أحد فى سرقتهم.

سلك الطريق يمينا، واستكمل مسيرته تحت أضواء المصابيح.

يجب أن تقول – وهذه صفات نادرة فى الشعراء – ان يكن لايتصرف كأحد العباقرة، لكنه يرى أن العبقرى يفتقد البهجة! وأن عملية سوء الأخلاق العميقة – التى تثقل فوق أعظم المشاعر الانسانية – تبدو له أسوأ جريمة. فهو يحترم الكثير من الناس، ليسوا شعراء ولا مفكرين، ولا وزراء، لكنهم ببساطة يعيشون فى سعادة أبدية. فالقيمة الحقيقية عند يكن تقاس بكمية السعادة التى يحصل عليها فى كل وجود. كيف يمكن أن يكون المرء ذكيا وحزينا؟ حتى أمام يدىّ الجلاد لا يمكن ل"يكن" سوى أن يكون مرحًا. تبدو كل المواقف نفاقا والتصاقا بكرامة ضائعة. وهكذا تخرج أشعاره معبرة عن أحاسيس الشعب الذى يعيش بينه. لغة تتوارد فيها الأمزجة عالية رغم المآسى. فشهرته فى المدينة أشبه بلاعب قرد أو قراقوز. يعتبر أن مهنته ليست لتسلية الجماهير. وانما للتعبير عنها. فهو لايجد فى نفسه أى تشابه مع رجل الأدب من طرازه،

الذى يتمتع بنفس شهرته الخالدة. هو لا يبحث عن المجد ولا الانجاب، لكن أشعار يكن ممزوجة بالكلمات العارية. يمكن أن يفهمها الصغير والكبير. يحسونها بغريزة لا تخيب عن الحياة التى يعيشونها.

ياله من شارع طويل ملئ بالحوانيت المغلقة. والمصابيح العديدة كأنها فى مسيرة جنائزية. أسرع الخطى. هرول ناحية قهوة المراياكى يتناول الشاى بالنعناع فى هذا الجو البديع. فجأة أحس بنوع من التنوير، فتوقف، الساعة! ترى كم الساعة الآن؟ هل لديه الوقت لرؤية الفتاة؟ كيف نساها؟ ركبه جنون فأخذ يجرى.

لم يجد وسيلة يمكنه بها أن يعرف الوقت. فى هذا الشارع الخاوى، لا يوجد أحد أمامه. كاد يكن أن يشعر باليأس. الا أنه رأى رجلا يخرج من باب عربة حنطور. يبو أنيقا. يرتدى ملابسه على الطراز الأوروبى. وقد حشر نفسه فى معطف أسود ثقيل. ويبدو أنه من الذين يحملون الساعات.

تباطئ، يكن واقترب من الرجل:

– كم الساعة الآن. ياسعادة البك؟

أخرج الرجل من جيبه "كتينة" من الفضة. وقال:

– الساعة الا ربعا. فى أى ساعة ستقل القطار؟

قال يكن: لا يوجد قطار. فلدى موعد مع فتاتى.

نظر الرجل الى يكن. وهز رأسه مرات عديدة وهو يقول:

– ممكن يا عزيزي!

أكد يكن: ممكن جدا.

ودون ان يشكر الرجل استكمل طريقه.

يا رجال القذر! انه يشك فى انه على موعد مع فتاته، رغم ان هذه هى الحقيقة تقريبا.

سوف يصل فى الموعد، فهى لاتعود قط قبل السابعة. وقف على مسافة خطوات من المنزل، تصلب فوق الرصيف، فى ركن مظلم بين مصباحين. فى هذا الشارع الأقل ازدحاما. لايزال به بعض الحوانيت المفتوحة، يتحرك شخصان أو ثلاثة حاملين أكياسهم المليئة بالفاكهة. يخرج من المحلات المضاءة بعض الدخان المنبعث من اللحوم المشوية وقريبا منها يوجد مقهى، استطاع يكن أن يسمع أصوات دوائر النرد، وأصوات اللاعبين. انظر – وقد ملأه التوتر – فتاته وهو يصوب عينيه تجاه المكان الذى ستجئ منه.

كان لقاؤهما الأول مجرد مصادفة بسيطة. فى ذلك المساء. وقع يكن فى غمار المخدرات وهو يسلك نفس الطريق. عندما رآها تسير

تحت نور المصابيح ذات طلعة بهية. تقابلت الأعين. اعتقد انه يقرأ فى عينيها وعدا واحساسا لم يشعر به من قبل. عينان مليئتان بالذكاء والغموض. وبدلا من أن يطلق تعليقا سخيفا. بادلها نفس النظرة. انها النظرة الوحيدة التى لم يشعر فيها بالعطف أو السخرية. ولكن بشعور غريزى أشبه بالرعب لعلها ابنة موظف. ربما فى السادسة عشر تتلقى دروس بيانو. عرف يكن ذلك من كراسات الموسيقى التى تحملها تحت ذراعيها. تتهادل كأنها أميرة تزور الأحياء الشعبية. انها فعلا كراسات موسيقى. تبدو شيئا غريبا على هذا الحى. ففى مثل هذا الحى لا يتلقى أحد دروس البيانو الا فى النادر. دهش يكن حين رأى بعض أطفال الحى يطاردونها بتعليقاتهم، انه طريقها بالتأكيد. أحس بالعرق يتصبب على جبينه. فى نفس المساء قرر أن يكتب قصيدة على شرفها، وان يعطيها اياها بأسلوب رقيق وفريد.

تصرف يكن دوما بنفس الرقة، فهو عندما يراها قادمة يسير فى اتجاهها كى يبدو اللقاء مصادفة، لكن، الا تفهم ذلك؟ فى آخر مرة القت له بابتسامة منتظرة. كأنها فهمت مشاعره. اطمأن أنه أكثر اقترابا منها. لم يعد يكن يفكر ثانية فى هذا الأمر، "لاتبدى أى اشمئزاز لرؤيتى. يالها من فتاة شجاعة. أو ربما هى قصيرة النظر؟" وزيادة فى الحرص تعمد ان يكون اللقاء تحت المصباح حيث الضوء قوى. حتى لايخدعها. لكنها أعجبت بدمامته حتى لا تأتى فيما بعد، وتروى له أنها لم تره جيدا فى العتمة الشديدة. لذا فان يكن يتعمد أن يجعلها تراه فى كل مرة. فيبدو الوجه

واضحا تحت المصباح. لعلها تفكر انه يتصور نفسه جميلا وهو يكشف عن نفسه وسط الضوء.

تأخرت الفتاة، ربما عادت الى المنزل، أو أنه لا يوجد درس بيانو اليوم؟ بدأ يكن يحس بالملل من هذا الانتظار الطويل، قبع ساكنا فى الظلام، سلم نفسه للبرد ولنظرات المارة التى تنظر اليه – ربما – كمن يتحين الفرصة. انه يخاطر بهذه الوقفة. توقفت أصوات الدوائر فى المقهى وارتفع خليط أصوات لم يستطع أن يحدد كنهها. مر بائع بطاطا وأخذ ينادى ممتدحا بضاعته، يستخدم نفس العبارات المثيرة كأنه يغازل بها امرأة مبتذلة. مر بعض الاشخاص قريبا من يكن. فوقفوا لحظة. نظروا اليه ثم استكملوا طريقهم وهم يهزون الرؤوس.

رآها قادمة من بعيد فأطلق تنهيدة ارتياح. يمكن لهذه الوقفة فى حى متوسط ان تنتهى الى مالا يحمد عقباه، أحس بالسعادة لأنها انتهت. تردد لحظة، ثم بدأ فى المشى، واضعا فى حسبانه أن يبدو اللقاء مصادفة تحت المصباح. واعيا أن يبرز دمامته. فهو لايؤمن بالاغراء. ومع ذلك تقدم وقد تورد وجهه كالعشاق محاولا ابراز كل دمامته كى يعمل على جذب اعجاب الفتاة.

وأسفاه! لقد نسى القصيدة التى نظمها، أين القصيدة؟ فتش فى جيوبه بسرعة. أخرج بعض الأوراق، اعتقد انه وجدها. تساءل: ربما ان

هذا أفضل "ياخسارة فليس لديه وقت كى يتأكد منها. هبت عليه نسائمها". كأنها دخان الحشيش. أكثر قربا، وواقعية. لكنه بعيد أيضا.

دخلت فى دائرة الضوء المنبعث من المصباح. بخطى رشيقة. رفعت رأسها وهى تنظر نحو الأمام، ساد الشارع زلزال جاب الحى كله. تضع على رأسها غطاء رأس من القطيفة الزرقاء. وترتدى معطفا من نفس اللون. وقد لفت على وسطها حزام من الجلد الأسود.

زادت هذه الأناقة الأوروبية من مشيتها سحرا. تضم كراسات الموسيقى تحت ذراعيها وقد كستها بمظهر التلميذة المجتهدة. ينم كل شئ فيها عن كبرياء لاحدود له. وازدراء تام له.

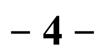
سارت على مقربة من يكن دون أن تغير من مسلكها. وتصنعت التجاهل التام تجاه يكن الذى وقف تحت المصباح، وقد كشف وجهه فى الضوء. اكتست شفتاه الغليظتان بابتسامة. لكن هذه الحركة لم يكن لها أى معنى عند الفتاة التى لم تعره انتباها..

شعر يكن بخيبة أمل. سار بضع خطوات. ثم استدار وأسرع خلفها. أحس انه على استعداد لاقتراف أى جرم لو استدعى الأمر، كيف جرؤت ان تتجاهله؟

– نسيت هذا يا آنسة.

وقفت مبعوتة. بدا عليها الخوف.. فالموقف مربك بالنسبة لها. لم تكن تتصور ان لديه الشجاعة ليفعل هذا. بسطت يدها بتلقائية. فمد لها يكن بالورقة المكتوب فيها القصيدة وابتعد على عجل دون أن يلتفت اليها.

مر الأمر دون خطورة. نجحت طريقته تماما. كيف ستتصرف بعد ان تقرأ القصيدة؟ أحس بسعادة عميقة وهو يفكر كيف سيكون لقاؤه القادم بالفتاة.



دخل "نور الدين" ضابط الشرطة قاعة الانتظار وأغلق باب الغرفة خلفه حيث يفحص الطبيب الشرعى جثة العاهرة القتيلة. ظل ساكنا برهة، وقد امتلأت نظراته الثاقبة بالثقة. تأمل الغرفة بدقة شديدة. كأنه يبحث عن شئ يتعلق بالقاتل، هذا جزء من الروتين.

فالقاتل موجود فى هذه الغرفة بالتأكيد. ارتعد الحاضرون لهذه النظرات الباردة، ولمدة ثوان ساد صمت رهيب، الآن كل البنات فى المترل وأيضا ثلاثة زبائن أوقعتهم ظروفهم السيئة فى هذا الموقف. لايوجد أدنى سبب للشك فيهم، يقفون بجوار الباب كالعادة يحرسهم أحد رجال الشرطة كرهائن. منذ ان عرفوا أن لاشيئا يمسهم ويكررون ان وراءهم أعمالهم وعليهم الذهاب. لكن شكواهم ضاعت سدى الريح مع هذا الضابط المتجهم الوجه الذى يقف بجوار باب المترل. يتكلمون الآن فيما بينهم عن وضعهم الاجتماعى الحساس. ويرددون ان هذا الخطر كفيل باحداث فضيحة عالمية. قال أحدهم:

– طبعا يا سعادة البك!

– سأتولى أمرك فيما بعد. وأنصحك أن تلزمى الهدوء.

دعك الضابط يديه وبدا متعبا للغاية. فمنذ أن بدأ التحقيق وهو يشعر بالضيق مما يحدث. فالقتل لم يتم بدافع السرقة. والجريمة ليست بدافع الجنس. يقول تقرير الطبيب الشرعى أن جسد العاهرة ليس به أى

علامات أو كدمات. لقد خنقت الفتاة بطريقة تقليدية. أمر غريب. وجد نور الدين نفسه – لأول مرة – فى موقف لايحسد عليه: أن يحل لغز جريمة بلا دافع. فجريمة كهذه تخفى فى طياها أسباب غريبة. أسباب خفية ذكية لايمكن لشخص واحد – الا اذا كان ذا ثقافة أوربية – ان يفكر فى تنفيذ مثل هذه الجريمة. انها من نوع الجرائم التى تنشر فى كتب الغرب. جالت عينا الضابط القلقة – من جديد – فى المكان. بحثا عن شخص بالغ الذكاء يمكن أن يقترف مثل هذه الجريمة. لكن أى من هؤلاء لا يقدم اجابة شافية، فلايمكن لأى منهم أن يكون هذا القاتل الخيالى. أحس نور الدين أنه وحده مع الجريمة. اقترب من مقعد قريب من المائدة وجلس عاقدا ساقيه، ثم اشعل سيجارة.

انه عبد للروتين. عليه أن يسأل كل هؤلاء الناس. وهو يعرف الرد مسبقا، ماذا يمكن أن يفعل بكل هؤلاء الذين يرتجفون ويخافون ضياع سمعتهم. أخفى نور الدين اشمئزازه، وشعر ان الملل يتسرب الى روحه وترك ما يحدث حوله. تذكر مشكلته الخاصة. لقد استدعوه كى يتول هذه المهمة فى لحظة حساسة. يشعر أن عدم لقائه بسمير يعد كارثة. لايكف عن التفكير فيه. يعرف مدى حساسية الشاب. العذر أقبح كى يغفر له عدم حضوره. سوف يضرب له موعد آخر. ترى هل يوافق أن يلتقيا ثانية؟ ينغص هذا السؤال على كل أنشطته، فلا يشعر بأى راحة. لكن عليه الا يكون شاردا وهو يحقق فى جريمة مجهولة الدافع كهذه.

ورغم مايبدو على الضابط نور الدين من صرامة، الا أنه معجب مشدوه بالجمال. هذه المهنة التى تجبره ان يكون وسط حضيض المجتمع. قد غدت شيئا بشعا بالنسبة له. فهو يجد نفسه دائما غارقا فى أوحال حوارى الأحياء الشعبية. برفقة المجرمين والمتشردين، وهذا شئ يهدد روحه الآمنة ويجعله فى حال يرثى له. رغم أنه يؤمن برسالة هذه المهنة ويكن فى أعماقه ايمانا بدور رجل الشرطة. لكنه يحب ان يتولى الجرائم النظيفة التى يرتكبها الأذكياء من المجرمين. انه يقع دائما مع الأفاقين والأقل تربية.

الا يشعر أى انسان بالمرارة وهو يرى مثالياته موضع سخرية؟ يالقسوة القدر! أحس نور الدين بالاختناق، فك الزرار العلوى ليخلص عنقه من هذه الياقة القاتلة، شعر بالراحة وهو يفعل هذا الأمر الغريب. أحس أن عليه أن يجرى الاستجواب رغما عنه. بالنسبة للبنات فلا يمسهن أى جرم. ومن غير المجد أن يستجوبهن. لسن سوى حيوانات غبية. هن كفيلات أن يزيدن من تعقى مأموريته. ليس أمامه سوى الزبائن الثلاثة الذين يخرق التساؤل عيونهم. وكاجراء روتينى عادى سوف يجرى معهم استجوابا عن هويتهم وسيطلق سرحهم. فالقاتل ليس من بينهم بالتأكيد. اقتنع " نور الدين" شيئا فشيئا – ولعل هذا ما يوده فعلا – أن القاتل رجل آخر. طليعى الفكر وفوضوى. ومثل هذه الملابسات تعطى لمأموريته حيوية.

قال أحد الزبائن الثلاثة الذى يتباهى بصداقته للوزير صارخا: لايمكنك أن تفعل هذا بي! الا تعرف من أنا؟

ألقى عليه نور الدين نظرة اشمئزاز. انه يعرف هذا الطراز من البشر. يكفيه مالديه من أمثاله. أمامه الآن مهمة عليه أن ينتهى منها. فالمهمة الحقيقة لن تبدأ الا غدا اذا حالفه الحظ سيقابل سمير قبل أن يحل الليل. عملت هذه الفكرة بثقلها فوق آلامه. ظل مكتئبا. مكفهر الوجه. يبدو صارما.

فتح باب الغرفة التى يرقد فيها جسد العاهرة القتيلة، خرج منه رجل فى الخمسين من العمر شاحب الوجه طويل الأنف، يرتدى طربوشا مجعدا يملأه التراب. انه الباشكاتب:

– تحت أمرك ياسعادة البك.

قال الضابط: اجلس هنا.

جلس الباشكاتب. وأخرج بعض الأوراق من حقيبته ووضعها فوق المائدة. ثم أمسك قلم كوبيا مبرى من الطرفين. وقد تركت بعض البقع الزرقاء على شفتيه. سأل:

.. بمن نبدأ؟

أجاب نور الدين: سننتظر قليلا. هل انتهى الطبيب الشرعى مع الجثة؟

– أمامه وقت قصير.

– أرجو ذلك.

بعد هذا الحوار القصير. استعاد نور الدين وجهه الصارم، نفث دخان سيجارته وهو يتطلع نحو السقف. يبدو كأنه قد قرر الهروب من عبوديته. رركز الجميع أنظارهم عليه. لقد وضعهم مثل هذا الموقف المتضارب الملئ بالتهديد فى وضع تحد. فهم لايعرفون ما سيقولونه ولا ما يضمره لهم. جلست الفتيات فوق الأريكة متكومات فى حماية الست أمينة. تملكهن الخوف فيما يدور. لكنهن يشعرن بالسعادة لحضورهم تحقيق فى جريمة تخصهن. فيملأهن الفضول. أما نايلة فهى الوحيدة التى أثرت فيها المأساة. فقد جعلها المرض أكثر هشاشة وحساسية من زميلاتها. فهى تقدح خيالها وتضع نفسها مكان القتيلة. تمنت أن تكون هى. تريد أن تموت مع هذا المرض الميئوس من الشفاء منه.

من الأفضل بالنسبة لها ان تقتل بدلا من ان تعيش أشبه بهيكل عظمى. السيرة موت بطئ لايرحم. غلبتها أفكارها وقد علاها شحوب واضح. بين لحظة وأخرى يهزها سعال قوى. حاولت الفتاة الجالسة قريبة منها – وتدعى سليمة – أن تهدأها. أما عقيلة أصغر بنات الماخور فقد أبعدت وساوسها ولم تفكر سوى فى العمل فرغم وجود رجال الشرطة

وجثة زميلتها الممددة فى الغرفة المجاورة. الا أنها لم تكف عن الغمز بعينيها للزبائن الثلاثة الموضوعين تحت الحراسة. لكنهم كانوا يفكرون فى أشياء أخرى فقد ذكرتهم غمزات عقيلة وابتسامتها بواقعة سوداء حاولوا نسيانها. فمن الآن وصاعدا سيفكرون ألف مرة قبل أن يدخلوا ماخورا آخر.

أنهى الطبيب الشرعى مهمته. دخل قاعة الانتظار. وقد علا وجهه اكتئاب، وبدت عيناه حمراون كأنهما تشعا بيرانا. كأنه سكين. انه شاب أيضا. تأثر كثيرا لرؤية جثة أرنبة العارية. سأل بصوت مخنوق أين يمكنه أن يغسل يديه. قالت الست أمينة:

– فى آخر الطرقة. أره الطريق يا زايد.

أشار زايد – الخادم – الذى كان يجلس فى أحد الأركان للطبيب بكل وقار. واختفى معه فى الممر.

أثار هذا الأمر انتباه الضابط فقال للست أمينة:

– أخبرينى يا امرأة. هل زايد قوادك؟

صاحت الست أمينة: يا لها من اهانة يا سيدى. انه يتولى اعمالى. ويقوم بخدمة البنات.

– أين كان بعد الظهيرة؟

– كيف لى أن أعرف. أنه لا يأتى الا فى المساء. جاء بعد أن عدنا. ولد طيب يعمل فى خدمتى منذ سنوات وأنا أثق به.

سعت الست أمينة أن تجعله يشعر أن القاتل غريب عن مترلها. تعرف أنه لم يبق أمامه سوى ان يهاجم تجارها.

– سوف أتولاه فيما بعد. أخبريه الا يغادر المكان، وانت مسئولة عن هذا.

تنهدت الست أمينة وقالت: ليحفظنا الله. هل أعد لك قهوة ياسعادة البك؟

– لسنا هنا لشرب القهوة يا امرأة! يبدو أنك لاتقدرين جسامة ما حدث فى بيتك. دعينى أخبرك أن نهايتك اقتربت.

قالت أمينة متوسلة: ارحمنى ياسعادة البك؟ ماذا أفعل. اقتلنى اذن!

– كفاك وهذه الملهاة! وأكرر عليك لآخر مرة. لست هنا لأشرب قهوة ولا لأسمع هذه الأصوات المزعجة.

ود أن يخبرها أنه هنا لمعرفة القاتل. ولكن بدا هذا أمرا ساذجا فلم يقله، تصرف نور الدين كطفل صغير غيور على أسراره فعليه الا يجعل أحدا يكتشف رأيه فى أن القاتل ليس فى المترل. وانه ليس من ابناء الأحياء الشعبية. تنخر فى رأسه فكرة أن القاتل غريب عن هؤلاء

"الهمج"، رغم أنه يدرك أن يقينه مبنى على تحليل نفسى ومصادفة. أحس أنه يتزلق فوق منحدر خطير لا يعرف أين سيأخذه. عليه الا يتبع الروتين التقليدى. عليه القبض على القاتل. لكن كيف؟ لو سرق شيئا لأقتفى أثره. ولكن هذا القاتل اللعين لم يسرق شيئا. قتل واختفى. ترى ما السبب؟ ربما بدافع الانتقام! عليه أن يعرف شيئا عن حياة القتيلة. هذه العاهرة الصغيرة الساحرة الجمال، عليه أن يجد أثرا لبعض الرجال الذين يعرفونها. وعما اذا كان لها عشيق. لم يطلق نور الدين خيالاته كثيرا. فهاهو فى مهمة داخل مجتمع متمرد. اعتاد العنف، ملأته التجربة. ويتصرف ببرود. ورغم هذا عليه أن يتعرف على قاتل العاهرة.

كيف يمكن أن يخرج نفسه من هذه المحنة؟ فغثاثة المهام المماثلة تجعله يشعر دائما بالدونية، والاحباط، وقد يكون فى نهاية الأمر ظالما ومصابا بالمرارة. طالما أنه فى خدمة القانون. عليه أن يجعل القانون مهابا يعاقب المذنب. للأسف فان احساسه بهذه القوة بدأ ينخر فيه. وقد يدفعه ان يصبح أقل ايمانا بالسبب الذى يعمل من أجله، وهذا أمر جسيم.

جاهد أن يغلب يأسه. واستعد لبدء التحقيق.

فى هذه اللحظة طرق الباب بشدة. ران صمت طويل. أشار نور الدين للشرطى ان يفتح الباب.

عبر الكردى الممر بخطى مرحة. وقد اكتسى وجهه بابتسامة تعبر عن السعادة، لكنه توقف كأنما أخطأ المكان. اتسعت حدقتاه من الدهشة

وهو يرى هذا الجمع الذى أمامه. كف عن الابتسام. ود أن يقول شيئا. ربما يعتذر. لكن الشرطى لم يمهله الفرصة للكلام. أمسكه من ذراعه. ودفعه أمام الضابط قائلا:

– زبون جديد، ياسعادة البك.

قال الضابط موجها كلامه للست أمينة: أرى منزلك عامرًا!

أيقظت سخريته الشجون. فمنزلها عامر. وليست فى حاجة ان تؤكد له ذلك. وهى الآن معرضة ان تفقد كل هذا نتيجة لجريمة ارتكبها قاتل داعر. ومن جديد بدأت تبكي:

– لماذا تلاحقنى المصائب. أنا امرأة غلبانة.

أمها نور الدين: اسكتى والا أمرت بحبسك: لنر هذا الشاب.

قال الكردي: أنا؟

انها الكلمة الوحيدة التى تمكن من النطق بها. لم يفهم حتى الآن أى مصيبة وقع فيها. فوجوده فى مثل هذا المكان أشبه بحلم. دعابة سخيفة. دعك عينيه كى يرى جيدا ماذا يفعل هذا الضابط هنا؟ بدأ يكتشف الأمور. انها "كبسة".. كاد أن يضحك قال نور الدين:

– أجل. أنت.

تأكد الكردى أن الأمر جسيم. تمالك وعيه، واختفت الابتسامة. اكتست شفتاه بابتسامة بلهاء ساخرة مليئة بالاهانة. نظر اليه الضابط بحدة. سوف يوسع هذا الوافد الجديد من دائرة التحقيق. ونور الدين لايريد شيئا من هذا القبيل. لاحظ أن هذا أول شخص يستحق الاحترام. تختلط بهذا الوسط الغريب. فكر أن يقبض عليه. سأله الكردي:

– ماذا حدث؟

– سأشرح لك كل شئ. اجلس وكن هادئا.

هز الكردى كتفيه. وعدل طربوشه ونظر ناحية الأريكة. التفتت الفتيات حول الست أمينة وقد غلفهن الصمت. عندما رأى نايلة بوجهها الشاحب الذى تملأه الدموع أسرع نحوها. رأى فى نفسه رجل الحق الذى عليه ان ينقذها من قبضة الشرطة.

– افسحوا لى مكانا.

افسحت الفتيات له مكانا. جلس الكردى قريبا من نايلة. أمسك يدها وضمها اليه. لكن هذا الموقف المؤثر لم يسكن الراحة فى الفتاة. بل ان حضور حبيبها أثقل عليها أحزانها. فهى تعتز بكرامتها. تعى تماما أن الكردى يمكنه أن يخلصها. تتساءل أحيانا هل هى صادقة نحوه. فكلما أخبرها عن رغبته فى ان تترك هذه الحياة تتأزم علاقتهما. سأل الكردي:

– قلن لى يابنات. على شرف من هذه الحملة؟

قالت سليمة: ليست حملة. لكن أرنبة قتلت.

– قتلت! كيف، وأين؟

– وجدت بعد الظهر مخنوقة فى سريرها.

جلس الكردى مذهولا بعد أن سمع عن الجريمة. ثم تنبهت مشاعره. وأدرك جسامة الأمر. تأمل نايلة ولمسها كأنما يؤكد لها وجوده وشعر ان قلبه تملأه الشفقة.

ربما كانت هى.. ملأته هذه الفكرة بالألم فجاهد دموعه. لكن هذا لم يدم طويلا. نظر الى الضابط والمحضر والشرطيين. انهم يمثلون العدالة. ملأ الفضول رغبته. ويفكر أن الأمر لايتعدى التسلية.

– هل قبضوا على القاتل؟

ردت نايلة: لا

قال الكردي: يالها من قصة مزعجة. فقد اعتقدت أنها أنت.

– ليتها أنا. ساعتها لن يبكى أحد علىّ.

– لاتقولى هذا الكلام. لن أتركك وحدك أبدا ياحبيبتى. سأكون معك بدءا من اليوم.

– يا الهى. لاتقل هذا الكلام. ووظيفتك؟

– الوظيفة. سأطوح بها الى الشيطان. لقد وجدت وسيلة أخرى لكسب الرزق. سأحدثك عنها فيما بعد.

– خرج الطبيب الشرعى، بدا أقل تأثرا. كأنه وقع تحت تأثير مخدر. سأله الضابط:

– الا من جديد؟

قال الطبيب: الآن لايوجد. غدا سأرسل لك تقريرا بعد التشريح. الآن سوف أذهب. سلام عليكم.

قالت الست أمينة: الا يود السيد الطبيب أن يتناول كوب شاى. لايمكن أن تذهب هكذا. بالله عليك شرفنا.

رد الطبيب الشرعي: شكرا جزيلا. فأنا على عجالة من أمرى. فى مرة قادمة.

انفجر الضابط قائلا :قولى يا امرأة. متى ستفهمين أننا لسنا فى زيارة ماخورك. أخبرتك ان تسكتى.

_ فهمت ياسعادة البك. أنا لا أفعل سوى الواجب. أريد أن أكون ودودة.

قال الكاتب: سوف نبدأ الاستجواب.

ألقى نور الدين عليه نظرة حادة لم يفهمها. أى استجواب؟ لقد نسى تماما هذه الملهاة السخيفة. ومع هذا عليه أن يقوم بها. فالروتين يضطرب الى ذلك. وهذا الباشكاتب الذى تعلوه الأتربة يسبب له وجعا فى رأسه. تمنى نور الدين أن يكون معه باشكاتب شاب. فمثل هذا الرجل العجوز لا يمكن للعدالة أن تأخذ مجراها.

أشار الى أحد الزبائن أن يقترب. انه ذلك الذى يدعى أنه صديق الوزير. قام ومشى تجاه الضابط بخطى متثاقلة وهو يزمجر بكلمات غير مفهومة. يبدو بليد الذهن. يرتدى بدلة متسخة. وقد تجعد طربوشه القذر وقف أمام الضابط منفوشا وصاح:

– لايمكنك أن تفعل هذا. أنت لاتعرف من أنا.

قال نور الدين بهدوء: أسكت.

– قلت لك الا تعرف من أنا؟

– وأنا قلت لك اسكت. رد فقط عندما أسألك.

– اسكت، أبدا. سوف تندم عندما تعرف من أنا.

دق على صدره كأنه يشير الى هويته.

سأله نور الدين: حسنا. قل لى من أنت؟

تنهد الرجل بعمق وقال بصوت يملأه الفخر:

– أنا محصل.

أثناء هذا كان الكردى يتطلع الى ما يحدث دون أن يتنبه أن هذا يمكن ان يحدث له. يرفض ان يفهم ما يحدث أمامه ويتردد فى أن يضحك. لاحت فجأه أمام عينيه سخافة الموقف فانفجر ضاحكا.

توقف صديق الوزير. بدا خائفا كأنما ضحك الكردى يمس نبل أخلاقه. وضعته هذه الاهانة الجديدة فى موقف يرثى له. نظر الى الكردى باحتقار. ماذا يضحكه. هل لانه محصل؟

أما الكردى نفسه فلم يفهم علام يضحك. بدا الأمر غريبا للحاضرين. فهو يضحك فى منزل ارتكبت فيه جريمة قتل. ووسط تحقيقات الشرطة. ولا يمكن أن يكون هذا سوى ضرب من الجنون. نايلة لسلوك حبيبها المهين. ولم تجد توسلاتها فى أن يكف عن الضحك. فقد بدا أن الشاب غير القادر على السيطرة على الرعشة التى تهزه من أعماقه وفى كل مرة ينظر الى الرجل يعاوده الضحك مرة أخرى.

أحس المحصل بالاهانة، وانتظر ان ينتهى الضحك كى يتكلم. لم يفهم شيئا. أما نور الدين فهوالوحيد الذى أراد ان يضحك وسط هذا المشهد المهيب. لكنه لم يود أن يحول الأمر الى مزاح. قال:

– كف عن الضحك. فلسنا هنا فى ماخور.

قال الكردى وهو يضحك أكثر: فعلا ياسعادة البك. لسنا فى ماخور.

أحس نور الدين أنه يتهم الجميع. وانه اقترف جرما. سكت وهو يشتعل غضبا. انهم فعلا فى ماخور. على كل فسوف ينال من هذا الشاب عندما يحين دوره فى الاستجواب.

فى هذه الاثناء. استعاد المحصل جأشه. فقال:

– هل تعرف من أكون الآن؟

– محصل. أين؟

صاح المحصل وهو يشهد الجميع على وجوده: أيها الناس الطيبون. أنا أقوم بالتحصيل فى كل مكان. ألم تر محصلا من قبل؟

قال نور الدين: مثلك. لا.

– سيدى الضابط. أنا أحتج على هذه الاهانة. وسوف أشكو للوزير.

أحس نور الدين أن عليه أن يتصرف بسرعة. والا لن يصل لشئ مع هذا الملعون. وسيكون جهاز السلطة ألعوبة. وسيغدو الاستجواب

ملهاة ساخرة لايمكنه أن يترك نفسه يخاطر. صفع المحصل على وجهه مرتين. استدار هذا الصغير وأطلق صرخة مكتومة. وقد غطى وجهه بيديه. لكن الأمر جاء متأخرا. جلس نور الدين وهو ينظر اليه باشمئزاز. كل هذا دام كسورا من الثانية.

– اجلس. والآن فامامك فعلا ما تشكو منه الى الوزير.

عاد الرجل الى مكانه صامتا. سار منحنيا كأنما أصابته الشيخوخة فجأة. وبدا كأنه أفرغ كل كرامته خلفه.

استكمل التحقيق بشكل طبيعى. تصرف الزبونان الآخران بحذر واضح. فذكرا اسميهما ووظيفة كل منهما بسهولة. وقد علاهما الشعور بالخزى لأنهما دخلا مثل هذا المكان، يفكران فى الخروج بأسرع ما يمكن. أطلق الضابط سراحهما، وأيضا سراح المحصل الذى يسير الآن فى طريق ملأته الأشباح. لن يتقدم بأى شكوى الى الوزير. فقد عرف فيما بعد أنه محصل متقاعد.

عندما شعر الكردى أن دوره قد حان أحس بالقلق. فهو لايحب أن يمثل أمام الحكومة لأن هذا يعطيه الاحساس بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقه. سوف يدافع – أخيرا – عن الشعب المظلوم، رغم ان هذا الشعب لم يوكله للدفاع عنه. ينظر دائما الى العدالة كأنه نصير المظلومين، فهو مشغول بقضايا الحرية التى قد يمسها الظلم من أى ناحية. يحس الآن ان الوقت حان كى يهاجم العدالة المجسدة فى هذا الضابط

المتغطرس. سوف يلقنه درسا وسيخبره أن الجريمة والقانون شئ واحد. وأحس بالسعادة.

استدار نور الدين ناحية الكردى. وهو يدقق فيه. كأنه يقوم قيمة فريسته. وأحس هو أيضا بالسعادة:

– تعال يامن كنت تضحك.

قام الكردى من مقعده. وجلس أمام المائدة التى يجلس الضابط خلفها. وقد بدا عليه الاستياء:

– لن أجعلك تنتظر. اسمى الكردى. موظف فى وزارة الأشغال العمومية.

لم يحس الكردى بمدى حقارة وظيفته مثلما أحس بها أمام هذا الضابط المتعجرف. آه. ليس نور الدين متعجرفا ولكنها طبيعة عمله التى تجعله يحتك بالجهلاء الذين تملأهم المرارة. أما الكردى فانه يحتقر أفكار ضباط الشرطة الغبية، ولسوء حظه، فقد وضعته الظروف أمام ضابط الشرطة الوحيد الذى لديه موهبته الخاصة التى يطبقها بأسلوبه.

– وهكذا يا سيدى الموظف ترتاد بيوت الدعارة. هل أنت مندوب الوزارة؟

– أجئ هنا بدافع الرغبة، وأعتقد أن الحب ليس ممنوعا فى القانون، والا كان كارثة.

أضاف نور الدين: لا الان ليس ممنوعا.

– وهذا ما اتمناه فى المستقبل. لكن هذا لا يثير أى دهشة.

– اذن فانت تفهم فى القانون. هل لديك الرغبة فى الشكوى!

رد الكردى بحماس: سأشكو عندما يكون هناك سببا.

شعر نور الدين بالرضا الذى لم يشعر به أبدا فى تحقيقاته السابقة. يجلس الآن أمامه – متورطا فى جريمة قتل – رجل مثقف. لديه وعى بالأشياء وليس من الرعاع. انه يسعى الى مثل هذا اللقاء منذ سنوات. ترتسم السذاجة فى عينيه ويحس ان هناك تمردا لدى هذا الشاب. يميل الى الهجوم الذى يفتقده منذ زمن طويل.

بالتأكيد ليس الكردى شابا، ثم أن ملامح وجهه قد اكتست بأشياء غريبة. أثارت انتباه نور الدين الذى بدا كأنه نسى أفكاره المريرة. الآن فان هناك تغييرا واضحا فيه. طريقته البالغة الرقة، الحقد الذى يحسه تجاه السلطة.

دقق فيه نور الدين. بنوع من الاعجاب البادى. وقد شعر بالرضا. لذا بدأ يتكلم فجأة باللغة الانجليزية:

– هل تأتى كثيرا هنا؟

رد الكردى بنفس اللغة: كلما وددت اشباع رغبتى.

– يبدو لى انك تفضل احدى هؤلاء الفتيات. وأنك عشيقها على ما اعتقد.

علا هذا الحوار – باللغة الانجليزية – وسط صمت قاتل. لم يفهم الباشكاتب شيئا فتوقف عن الكتابة. فى أول الأمر حك اذنه معتقدا أن صمما أصابها. ثم تجاوز الأمر. ووضع قلمه الكوبيا أمامه وحاول أن يتظاهر بأنه يفهم ما يدور. تصورت الست أمينة أن هذه اللغة الغريبة تخفى فخا مدبرا لها. تنهدت وهى تقول:

– بشرفى انه ليوم القيامة. يتكلمون فى بيتى بالانجليزية.

قرر نور الدين ان يستكمل الاستجواب باللغة العربية. ليس ليطمئن الست أمينة. ولكن لأن المحضر قد وجد نفسه خارج اللعبة. فأخذ يكزّ أسنانه:

– هل لك علاقات بأشخاص يأتون هنا؟ أريد أن أعرف رأيك فيهم.

أمسك الكردى طرف هذا السؤال الجانبي:

– على ما فهمت. فانت تعنى أن أحدثك عن الأشخاص الذين يمكنهم ان يرتكبوا جريمة. دعنى أخبرك ياسيدى الضابط أننى لست وغدا.

– لا أقصد. لقد فهمت خطأ. أريد أن أعرف ظروف هذا البيت. هل يمكن ان تعاونني؟

رد الكردي: على كل. فأنا لن أفعل شيئا أساعد به الشرطة. ولا أعرف شيئا حول هذا الأمر.

– أليس لديك أى فكرة حول اسباب هذه الجريمة؟

– هناك أفكار كثيرة. أشك أنك يمكن ان تفهمها.

– لماذا؟ سأكون سعيدا اذا عرفتها.

– حسنا. أنا أعتبر أن المجتمع هو المسئول الوحيد عن هذه الجريمة.

قالت الست أمينة:

– ماذا تقول يابني؟ هل جننت؟

اعتقدت أن "المجتمع" الذى يتكلم عنه الكردى يعنى الأشخاص الموجودين خاصة هى. قال نور الدين وعيناه تلمع باحساس غريب:

– اسكتى يا امرأة! استمر ياعزيزى. أنت تثير فضولى.

لكن الكردى كان قد انتهى من كلامه. أحس أنه قال كل مالديه بهذه الجملة الثورية. قال:

– ليس لدىّ شئ أضيفه.

بدا أن منابع ثورته قد جفت. قال نور الدين:

– للأسف. وددتك أن تعمق هذه الفكرة. لايهم! فى مرة أخرى. هناك أسئلة أخرى سوف أطرحها عليك.

من الملابسات السعيدة الا يكون هذا الشاب هو القاتل. فهو يتصرف بحرية ومثالية. ويلقى على الجميع تهمة قتل العاهرة. شاب فوضوي! لعل هناك الكثيرين يفكرون بنفس الاسلوب. أحس نور الدين بالاعجاب بهذا الشاب الذى أيقظ كل أفكاره. وسوف يقوده بالتأكيد الى اكتشاف القاتل. لذا حاول الا يفاجئه. سأل:

– هل يمكن أن أسمح لنفسى أن أسألك أين كنت بين الساعة الثانية والسادسة بعد الظهر؟

قال الكردى بدون تفكير: أتمشى.

– حسنا. عذر تقليدى. لكنه للأسف لا يقنع. أليست لديك أقوال أخرى.

– يمكنك أن تجد آثار أقدامى. فأنا أرتدى حذاء مميزا. ثم قام الكردى كى يشير الى كعب حذائه.

لم يكن أمام نور الدين الوقت ليرد. فقد فتح باب المزل ودخل منه ممرضان. يرتديان الملابس البيضاء وهما يحملان نقالة. ادخلهما الشرطى الى غرفة العاهرة القتيلة. فاختفى ثلاثتهم. خرجا بعد قليل يحملان جثة أرنبة مغطاة بملاءة. هنا انفجرت البنات فى الصراخ وهن يلوحن باذرعهن كالمجانين. سد نورالدين أذنيه وانتظر بفارغ الصبر نهاية هذه الزوبعة المثيرة.

ابتسم الكردى وهو يتذكر المحصل الذى أصابه الزهو مدعيا أنه صديق الوزير. ولم لا؟

– 5 –

استقبله ضجيج الأحداث، وأضواء مصابيح الغاز فأحس بالهدوء. امتلأت مقهى المرايا فى تلك الساعة بجمهور غفير شغل كل الموائد. سار بخطى بطيئة فوق الأرضية المصنوعة من الطوب اللبن. يبث الراديو العتيق بعض الموسيقى الغاضبة العالية. فتتمزج بأصوات وضحكات الجالسين. وسط هذا الحشد الغفير ترى شحاذين متجولين.

وجامعى أعقاب سجائر. وباعة يطلقون الدعايات. كأنهم بهلوانات فى ساحة عرض. بدت مقهى المرايا كمكان خلقه الحكماء. بعيد عن عالم الأحزان. يشعر يكن دائما بالاعجاب بهذا المكان الذى يشعر فيه بسعادة أقرب الى الهذيان. يبدو الفقر مجسدا فى ملابسهم القديمة. التى تلتصق باجسادهم النحيلة. لم يغسلوا وجوههم خشية أن تظهر نحافتهم أكثر.

زحام حقيقى. شق يكن طريقا لنفسه، سعيدا بهذه الضجة الأبدية. وأن يجد نفسه فوق هذا المكان. فهنا. لايزعج دمامته أحد. بالعكس فهى تتناسب مع هذا المكان سرعان ما عرفوه. وأطلقت عليه التحيات الودودة. فى بعض الأحيان يدعى الى تناول كوب شاى. انه يبحث عن جوهر، لعله بنتظره. فعندما تنقص المخدرات يقع فريسة للمعاناة، فمعاناة جوهر هى الشئ الوحيد الذى لا يحتمله فى الدنيا لانها تجعله قلقا. انه يضع كل كرامته جانبا كى يوفر لجوهر نصيبه اليومى من الحشيش. ولانه يقدم مثل هذا النوع من السعادة لرجل، وهى لا تدوم سوى ساعات. فانه يرى أن هذا الأمر أكثر فعالية من كل المحاولات التى لا تجدى والتى

يبذلها المصلحون والمثاليون لانتزاعه من هذا العذاب الآدمى. يشعر يكن انه يقدم أشياء ملموسة، فالحلول بطيئة والنظريات المطروحة للتخفيف عن معاناة الشعب لا تمثل بالنسبة له الا دعايات سخيفة.

ضحك وهو شارد الفكر.

ودون أن يتكلم، أحس أنه أسير لقائه الفائت مع الفتاة الحسناء. لقد نجح فى الدخول اليها من خلال القصيدة. رغم قلقه من نتائج هذه المغامرة التى لا تحمد عقباها بالنسبة لحياته الخاصة.

أولا: لانه واثق أنه لايكن لها أى شعور بالحب. فالأمر لا يعدو رغبة تنتابه. فهذه الفتاة المتغطرسة تبدو كأنها تتحداه. وقد أعطاه رد فعلها ازاء دمامته انطباعا عن مكرها. يرى يكن أن هناك شيئا غير طبيعى فى سلوكها ما يدفعه أن يستكمل هذه التجربة الفريدة. انها المرة الأولى التى يجد نفسه يهتم بامرأة.. الا أنه لم يتخل عن كبريائه. فهو لا يمكن ان يترك بسهولة هذا المنبع الذى يسليه ويشكل له وجودا حسيا. فلديه ما يكفيه بالنسبة لقانون الاحتمالات كى يعرف أن مغامرة كهذه لن تتاح لرجل مثله قبل ثلاثة أجيال. لذا عليه أن ينتهزها، ثم ان دروس البيانو تضيف غرابة على المغامرة. ليس لأن يكن يحب الموسيقى. فعلى العكس فهو يكرهها بشدة. لكنه لايصدق أن الفتاة سوف تعزف يوما أثناء حضوره.

هل يحدث جوهر عنها؟ عليه أن يجده، وسط أضواء المصابيح. فكر فى المرايا الضخمة التى تملأ الجدران، ارتعد بصره الضعيف. تقدم وسط الزحام بصعوبة عندما أحس بيد تمسكه.

– عزيزى يكن. تفضل وشرفنى بالجلوس على مائدتى.

استدار يكن، انه رجل لوطى معروف، يرتدى جلبابا من الحرير الأخضر، ومعطفا واسعا مزركشا، يصبغ شعره وشاربه ويضع خاتما ثقيلا فى أصبعه، تاجر أقمشة بالغ الثراء، مشغوف بالأدب، كثيرا ما شعر يكن بغموض فى نظرات هذا الرجل.

– ما أخبار الشعر؟

قال يكن: يحتضر.

– ولا يهمك. تفضل واشرب شايًا معى. فأنا انتظرك على أحر من الجمر.

– آسف. أبحث عن صديق.

غمز الرجل بعينه وقال: فهمت.

– لم تفهم. فلم أصبح بعد مثلك. قد يحدث يوما.

– سيكون يوما عظيما. سأكون سعيدا وأنا أعدك ضمن أصدقائى.

قال يكن محتجا: لا تفكر. مع مثل هذا الوجه.

– لاتنس أنك جذاب بالنسبة لىّ. فأنا أحب العباقرة.

– هل تريد أن تشاركنى عبقريتي؟

انفجرا ضاحكين. قال يكن:

– هذا مستحيل لأننى لست عبقريا. السلام عليكم. سأراك فيما بعد.

– اذن ألا تقبل هذه السيجارة؟

مد ل"يكن" علبة سجائر فخمة فأخذ منها واحدة أشعلها الرجل بولاعته الذهبية:

– شكرا.

ترك يكن التاجر الكبير. وبدأ من جديد يبحث عن جوهر. أين اختفى؟

لايراه فى أى مكان.

بدأ يشعر بالعصبية وهو يرى جامع أعقاب السجائر يتعقبه منتظرًا اللحظة التى يلقى فيها سيجارته. بدا طعم عقب السيجارة رائعا للصغير

وهو يدخنها. تتبع يكن الذى رمى سيجارته كى يتخلص من المطاردة رغم أنه لم ينته منها بعد.

هتف الطفل وهو يلتقط العقب: ليحفظك الله.

فجاءة رأى جوهر فى محل الحلاق - طراز من الأكواخ التى لا أبواب لها - تنعكس عليه أضواء المقهى فتنيره، يجلس جوهر فوق المقعد الوحيد وقد هده التعب. انتبه على صوت يكن:

- تحياتى لأستاذى.

- جئت أخيرا، يابنى!

انحنى يكن ناحية الأرض، ساخرا كأنه يقدم كل الاحترام لأستاذه:

- تحت أمرك دائما. ألن أزعجك؟

- لا طبعا. اجلس.

اسرع يكن لاحضار مقعد أخذ يجره فوق الأرض، ثم جلس قريبا من جوهر وهو يلاعب وجهه. فى كل مرة يتم نقله بنفس الخفة، يقال أن وجود جوهر يجعله فى أحسن حال. فتهرب منه كل معاناته، وتتلاشى عندما يلمح أستاذه. وسرعان ما ينسى دمامته.

ران الصمت فى محل الحلاق – على جوهر مما اكسبه قوة نقية. يحترم يكن هذا الصمت. يعرف أن صمت جوهر صفاء داخلى وبساطة. لكن فجأة انتابه احساس انه أهمل تماما. رغم انه لم يطلب شيئا أبدا، يغرق جوهر فى خضم شئ واحد. هو المخدرات، وبحيوية أخرج من جيبه ورقة ملفوفة. وفتحها وقسمها الى قطعتين. قدم القطعة الأكبر الى جوهر. أمسكها دون أن ينبس ببنت شفة، لفها بين أصابعه وصنع منها كرة صغيرة ثم وضعها تحت لسانه، كأنه يتناول وقطعة من السكر. أحس أن الحياة تعود اليه ببطء، وان دماءه تجرى فى عروقه. أغلق عينيه وهو يشعر بالكمال فى هذه اللحظة الرائعة التى حانت بعد ضياع تام. لم يتحرك يكن. يبدو مشدوها لطريقة جوهر فى تناول المخدرات بالفهم لسهولته. يعرف أن هناك أساليبا معقدة لتناولها. ويكن يحب أجواء المدخنين الساحرة. الدخان الكثيف المتصاعد كأنه الضباب، خاصة الرائحة الخانقة التى تظل عالقة بالملابس لفترة طويلة أكثر من عطور النساء. هناك خيال رائع يجمع فى روحه كشاعر. لايحسها فى جوهر وهو يتعاطى المخدرات بالفم. يشعر يكن بالخوار أمام كل هذه المحاولات. يقال ان التأثير لا يختلف. لايستطيع أن يمنع نفسه من الحسرة على هذه الطريقة التى ينقصها ديكور الدخان.

أخذ يحرك لسانه وهو يرقب كل حركات وجه رفيقه. يشعر صامتا بالمتعة عندما تنتابه فكرة الحديث معه. لكن جوهر لايزال حتى الآن. ولم يبق شئ يدل أنه حى سوى أنفاسه الحائرة.

بعد أن ترك الماخور الذى خنق فيه العاهرة الصغيرة. أخذ جوهر يتجول فى الشوارع باحثا عن يكن، استولت عليه رغبة عارمة فى تناول المخدرات. تصور نفسه فى مسرحية مأساوية ضاعت أهميتها وسط تلاطم الأمواج. ما أهمية جريمة واحدة وسط العديد من الجرائم التى ترتكب كل يوم بشتى الصور: الحروب والمذابح، والضغوط. بالتأكيد فهو لم يشعر بالشفقة. رغم أن صورة ضحيته تخنقه عبر طرق المدينة. على كل فهو لم يود أن يحشر نفسه فى هذا الأمر. لكن كيف يفسر هذه الجريمة؟ أى مصير ساقه الى دنيا الجريمة والشر. رفض جوهر أن يصدق ما حدث.

لم يتخيل أن مصيرًا ينتظره يمكنه الفرار منه أن يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى احدى المدارس الخاصة بالشعب؟ هل قدره هو ان يكون مدرسا محترما يعلم التلاميذ الكذبات فى المدارس الشعبية. هل يخون قدره بالهروب من هذه الأكاذيب؟ بلاشك فهو رجل مرموق ونتاج حضارة لا تحبذ ارتكاب جريمة القتل، لكنه يؤمن أنه هرب الى الشفافية والسلام والسكينة فوق الأرض المغتصبة التى يعيش عليها نبيل يحب البهجة. ألم ينجح فى أن يحضر معه الرعب والاغتيال الى الملتصقين بجسده؟ هل ستنتهى تجربته الى الفشل؟ لايصدق هذا.

كان يعرف دوما أنه يجب أن يضع فى حسبانه عدالة البشر. فلن يمكن للشرطة أن تقوم بتحليل المجردات. فالمصير بالنسبة له يعنى سيف الجلاد. ولن تفهم الشرطة القهر الضاغط. انهم مشغولون بادخال العبيد الى عبوديتهم، يعرف جوهر أنهم سوف يبحثون عنه بشتى الطرق. ليس

لأن قتل هذه العاهرة يمثل بالنسبة لهم مشهدا بشعا غير أدمى. ولكن ببساطة لأنه يزعج طغيانهم، والمفهوم التالى أن كل مخطئ يجب أن ينال عقابه هو أيضا أحد الأكاذيب التى تستشرى فى مجتمع مؤلم وقذر، هذه هى الأخلاق السيئة التى يقوم بتعليمها وهو يعتقد أنها أقرب الى ثروة غير مقيدة كأنما الأمر مؤامرة دنيئة ضد الشعب. فليست هناك وسيلة لاحترام الفقراء. لن يبقى له بعد هذه الجريمة – سوى كذباته القديمة وعماه المعقد تجاه القوى الجهنمية. لقد حطم كل شئ وكسر كل الروابط التى تربطه بهذا العالم الكريه، لكنه ينتمى الى هؤلاء البشر المطاردين، الذين يعيشون فى بؤرات الخوف، لكنهم يتمتعون بمقدرة طيبة على الحياة.

لاتوجد عدالة قادرة على اعادة الحياة الى أرنبة. ولكنه هو – جوهر – حى. وعلى الشرطة أن تكافح ضد عدو حى، رجل حى من الطراز المرعب، يشعر بآلام كثيرة تحيطه، عليه أن يناضل بكل مايملك للاحتفاظ بهذه الحياة الجديدة التى تنتمى الى القوى فوق الآدمية.

وهو يشعر بالحشيش يقوم بدوره. تحرك جوهر فوق المقعد، فتح عينه وابتسم وسط الظلام، فهم يكن انه يمكن أن يتكلم أخيرا:

– ماذا لديك لتقوله ياسيدي؟

– اسكت يا بنى. عشت يوما مشهودا.

– كيف؟

ابتهج يكن وهو يدلك يديه. بدأ وجهه يتحرك أكثر من ذى قبل. فصوت جوهر يؤكد انه سوف يسمع حكاية غريبة.

روى له مأساة الصباح. جاره الميت والمياه الملوثة التى غمرت حجرته وصراخ النائحات.

– أسير فى الشوارع منذ الظهيرة. تنه شئ مرعب.

هتف يكن: انها حكاية غريبة. تستحق العناء. سيدى مثل هذه الحكايات لا تحدث الا لك. بشرفى أنا غيور منك.

قال جوهر: بحثت عنك فى كل مكان. أين كنت؟

بدا يكن مهما. كأنه جزء من السر:

– ذهبت أزور أمى.

هناك شئ ما يتعلق بأم يكن، حاول جوهر أن يتذكره ماذا؟ لقد تذكر الآن:

– سمعت انها ماتت. تمنيت أن يكون الخبر كاذبا. أقدم لك عزائى يايكن.

قال يكن ضاحكا: شكرا ياسيدى. فالخبر ليس صحيحا. هى حية ترزق. ونجحت فى أن أجعلها تعطينى نقودا ونصائح أخلاقية. فقط أردت أن أجمع بعض النقود. مارأيك؟

– اعتقد الها فكرة رائعة. أتمنى لك النجاح.

قال يكن مغتطبا: أليس كذلك؟ كنت واثقا انك ستتفق معى الها امرأة رائعة.

– من. أمك؟

– أجل. تقول لى أحيانا كلاما يقطع الأنفاس. رغم أننى أعرف ألها لا تتعاطى الحشيش. هل تعرف ماذا قالت يوما؟

– لا. سأكون سعيدا ان أعرف.

– قالت لي: "أنت الآن كبير كى تواجه ربك بنفسك" أليس هذا رائعا؟

قال جوهر: لا أفهم.

– لا تريد أن أسير فى طريق الضلال. انظر لىّ ياسيدي! ترانى أواجه الله وحدى ولم أصل قط.

– ماذا أسمع. منذ متى تتعامل مع الله؟

– لم أهتم أبدا. كانت أمى تتولى شئونى. هناك اتفاق شرف بيننا. لكنه انتهى الآن، مضطر أن أتصرف وحدى. يجب ان أوفر مبلغا من أجل جنازتها.

– أعرف أن رأيك صحيح. أحيانا....

– ظل فوه فارغا. فسحر الحشيش يجعله يغرق فى هوس. وتأخذ الاشياء أشكالا مختلفة، يبدو انه لا يوجد مستحيل. يجلس فوق مقعده. وقد وضع يديه فوق عصاه التى يحتفظ بها بين ساقيه. فكر فى العلاقة التى تربط يكن بربه. ويرى أن الله يقف مع يكن ويساعده. يبدو كأنه يمارس العديد من أمور الايمان معه بشكل يجعله انسانا ضعيفا ومميزا، يبدو الطرفان كأن كل منهما يعرف الآخر منذ أمد طويل، يقولان كلاما بالغ القسوة دون غضب أو أن ترتفع حدتهما. لكن هل هناك مسافة فى هذه الرؤية؟

يقع كوخ الحلاق على مسافة قصيرة من مقهى المرايا. فوق رصيف ملأته الزبالة. فى المساء يأتى الشحاذون وجامعوا أعقاب السجائر اليه كى يناموا فيه. يتكدسون كأنهم حيوانات فى حظيرة. اكتشف جوهر هذا المكان ذات مساء كان يبحث فيه عن مكان هادئ. ومنذ ذلك الحين يجده أنسب مكان، أما مقعد الحلاق فانه مصنوع لراحته. قال يكن:

سيدى. أريد أن أحدثك بشئ.

- قل.

- أنا واقع فى تجربة عاطفية.

- تحياتى. من هى سعيدة الحظ؟

- فتاة تختلف.

قال جوهر: من هى الفتاة التى تختلف. عهدتك أكثر ذكاء ياعزيزى يكن.

- أعنى أنها ليست عاهرة.

- برجوازية.

- أجل. أبوها موظف.

- يا للبشاعة: هل تحبها؟

- هل تعاملنى مثل الكردى ياسيدي؟ لست طفلا.

- وليس الكردى طفلا أنت لا تعرفه. فهو واقع تحت سيطرة الأدب الأوربى الذى يجعل من المرأة مركز الغموض. والكردى يفكران المرأة مخلوق مفكر تدفعه حاجته القانونية أكثر منه كشخصية اجتماعية.

وهو فى الحقيقة لا يؤمن بذلك فكل ما يطلبه من المرأة. هو أن يكون معها أغلب الوقت دون أن يدفع لها. لأنه فقير.

– لكن الأمر يختلف بالنسبة لىّ، فأنا لا أود أن أنام معها.

– حب أفلاطونى. اذن المصيبة أكبر.

– ليست مسألة حب. انه شئ آخر.

– ماذا اذن؟

– لا أعرف.

سكت يكن. لاحظ أن بعض الأطفال الأشعثى الشعر يقفون على مدخل الكوخ يسمعون حديثهما فى وجوم ويبدون مندهشين لما يسمعون. قال:

– لايوجد مدخنون هنا. ولا توجد أعقاب. أنتم تضيعون أوقاتكم.

قالت فتاة فى الثامنة من عمرها، ترتدى فستانا متعدد الوان: لا نبحث عن أعقاب. نود أن ننام. فهذا مكاننا.

قال يكن: اذن تريدون النوم. لكن الوقت مبكرا. تنزهوا قليلا.

قالت الصغيرة ذات الشعر المصبوغ بالحناء: اعطنى قرشا.

بدت كأنها دمية صغيرة. قال يكن: قرش ماذا ستفعلين به، ألست خجولة من الشحاذة دعينا فى حالنا. نحن نتناقش فى أمر مهم.

قالت الفتاة وهى تبوز فمها: هيا بنا. إنهم فقراء.

قال يكن: هذا هو عيب الظلام.

ظل الأولاد جالسين قريبا من الكوخ. بينما يتطلع يكن اليهم ويسمعهم ينطقون بكلمات بذيئة. لعلهم يفكرون فى أن يخليا المكان لهم. يعرف أنهم سيعودون الى أعمالهم.

– هذه الفتاة تدهشنى.

سأل جوهر: من. جامعة الأعقاب؟

– لا ياسيدى. ابنة الموظف. لم تشمئز من منظرى. بل ابتسمت لى. أعتقد انها ترانى لطيفا.

قال جوهر قلقا: دعك من السذاجة. انها ترضى غرورك يا عزيزى يكن. هذه الفتاة هى الهاوية.

– نسيت ان أخبرك انها تدرس البيانو.

لم يتمكن جوهر من الرد. فقد أزعجوه مرة أخرى. هذه المرة بائع أوراق يانصيب. يمد له آخر ورقة بدت مجعدة قذرة. يبدو أنه التقطها من الأرض. صاح يكن:

– كم تكسب هذه الورقة؟

رد الرجل: ألف جنيه يابك.

– لاتكفى. أليست معك واحدة تكسب عشرة آلاف؟

– لا توجد ورقة تكسب عشرة آلاف، لايوجد سوى ألف. وهذه الورقة الرابحة اشترها وسيباركك الله.

قال يكن: اذهب. ألف جنيه شئ طيب للمتشردين.

ابتعد الرجل فى الظلام وهو يلعن كل الأسباب التى دفعته للزواج.

– هل تتصور ياسيدى. ان يكون معنا ألف جنيه؟

– ولماذا نفعل يابني؟

– يمكنك ان تسافر الى سوريا.

أثار حلم السفر جوهر بدلا من أن يمتعه. فهذا يذكره بجريمته. لقد انهار الحلم. هذا الحلم الذى لن يتحقق أبدا. أفسد حلمه الأوحد. سوريا

الفردوس التى يريد أن يقضى بها أياما سعيدة. من الصعب التخلص من تأثيرها عليه. ليست حلما. لكن التخلص من الحلم هو الخلاص الأبدى. قال يكن:

– يمكننى أن آتى معك.

أدار جوهر رأسه الى رفيقه. كيف يخبره أن هذا مستحيل. كيف يحدثه عن هذه الجريمة البشعة. لايشعر أنه قادر على الاعتراف. ربما سيروى له كل شئ فيما بعد. فغر يكن فاه، وهو يشاهد شبح الكردى واقفا أمام الكوخ.

– حدث أمر مرعب. ولا أستطيع أن أتماسك.

لم يشعر الرجلان بالقلق لهذا المدخل، فهذا أمر مألوف، فالكردى يترك الناس يتصرفون دوما كأنه رجل يهرب من ممارسة الجنس، يترك وقتا لاستعادة أنفاسه، وهكذا ظلا ساكتين لا يسألاه. انتظر بفارغ الصبر أن يقول لهما السبب فى اضطرابه. وسط هذا الصمت القاتل أطلق الكردى تنهيدة وقال:

– ليس الأمر مزاحا، دخلت بيت الست أمينة ووجدته يعج برجال الشرطة.

هتف يكن: حملة آداب.

– لا، اعتقدت هذا فى أول الأمر، لكن الأمر أكثر خطورة. لقد قتلت الفتاة أرنبة المستجدة.

وهو يتوقع تأثير ما يقول، هذا الكردى، اعتبر أنه نقل اليهما خبر المأساة.

سأل يكن:

– هل عرفوا القاتل؟

– لا. كل ما عرفوه انه لم يسرق شيئا. لقد خنق الفتاة. وهذا يثير جنون الضابط، ليست لديه شبهات فى أحد. جئت أخبركما الا تذهبا هناك، لقد استجوبنى، وكان أمرا صعبًا.

سأل يكن:

– أى نوع من الاستجواب. هل ضربوك؟

– لم يجرؤ أحد. عندما قلت أننى موظف حكومة غير الضابط لهجته معى، شخص غريب. أتعرف انه تكلم معى مباشرة باللغة الانجليزية؟

قال يكن: أماه. بالانجليزية:

– طبعا. لكن هذا لم يعجب الست أمينة. لم تصدق أن هناك أشخاصا يتكلمون باللغة الانجليزية فى منزلها.

– أعرف هذا النوع من الضباط. انه يخدعك.

قال الكردي:

– لا أحد يخدعنى.

بدأ يتكلم عن الاستجواب، احتفظ لنفسه بدور البطل الثورى فى ردوده على الضابط.. وهو يؤكد أن الاستجواب كان عنيفا لكنه دافع عن نفسه بكل قوة.

– تصورته غبيا. لايعرف كيف يخرج من هذا المأزق.

لاحظ أن جوهر لم يقل شيئا، فلصمت أستاذه مكانة خاصة. يبدو غير مقبول التفسير، ترى هل مات فوق مقعده؟ قال:

– أريد أن أعرف رأيك ياسيدى. جريمة قاتمة. أليس كذلك؟

رد جوهر كأنه يحادث نفسه: ربما كان خطأ يا بنى.

– خطأ. من قال ذلك ياسيدي؟

ثم انفجر ضاحكا.

– نسيت أن أخبره أنه كان يوجد رجل، زعم أنه صديق وزير...

فى هذه اللحظة. دخل رجل حافى يرتدى أسبالا، دفع الكردى ودخل الحانوت. بدا ثائرا:

– أين الحلاق. أريد أن أقص شعرى.

قال جوهر وهو يهب واقفا. هأنذا. تفضل حضرتك بالجلوس.

جلس الرجل فوق المقعد، وغط فى نوم عميق، قال جوهر وهو يسمع شخيره:

– هيا بنا.

قال الكردي: أريد أن أتناول شايا. فقد جفف هذا الأمر حلقى.

سار الرجال الثلاثة ناحية أضواء المقهى. وهم يسخرون من المحصل الذى رآه الكردى فى الماخور. لقد نسوا الجريمة. وكان جوهر أكثرهم نسيانا.

- 6 -

فى الساعة الحادية عشر صباحاً. جلس الكردى خلف مكتبه فى وزارة الأشغال العمومية وقد بدأ الذباب فى الطنين من حوله. الغرفة كبيرة واسعة مضاءة من خلال النوافذ العالية وتوجد بها مكاتب عديدة يجلس الموظفون خلفها. فيبدو الأمر بالنسبة له أكثر بشاعة من السجن.

إنه سجن من نوع خاص. وضعوه فيه بصفة دائمة مع سجناء القانون العام. لقد وافق الكردى أن يكون مسجوناً، شريطة أن يكون وحده فى الزنزانة. تحت شعار قضية سياسية. ويغوص بأحزانه فى خليط من المشاعر النبيلة الأرستقراطية لم يكن واعياً لها أبداً. كيف يفكر على سجيته فى مشاكل ذات صبغة عالمية أمام هذه الوجوه المليئة بالغبار. وقد نذرت نفسها للعبودية بلا حدود. وكى يعلن احتجاجه على هذا الظلم. رفض الكردى ممارسة العمل، راغباً أن يحقق استقلاله الروحى، ولأن أحداً لايلحظ هذا الاحتجاج فى داخله ، فإنه يتضايق.

ليس سبب هذا هو المكر، أو الكبرياء فى أن يمارس عملاً يمكن أن يمارسه الاطفال، لكن لأنه محبوس بصورة تثير الرثاء. يزامله أشخاص لايستطيع أن يتحملهم، فمعهم تبدو الحياة شيئا آخر. كأنها حلم مزعج. ماذا فعل كى يلقى عقابا كهذا؟ يجد الكردى نفسه فى مواقف ميئوس

منها، أن يرى نفسه يفر من هذا العدم. هذا الروتين البيروقراطى. الغبى. الذى لا جدوى منه. يشك فى مصيره. لايعرف ما يمكنه أن يفعل. فعندما يشعر أنه فريسة لقلق اسود ـــ مثلما يشعر فى هذه اللحظة ـــ يتخيل مأساة الشعب والضغوط المرعبة التى يقع ضحيتها، يحلم بثورة قوية دامية. لكنه اذا خرج الى الشارع واختلط بالناس: فإن مأساة الشعب تصبح أسلوباً. تفقد كل عنفها وقوها التفجيرية. يشعر أنه مجذوب لأدق التفاصيل الرائعة لهذه المأساة. لعظمة مزاج لا ينضب. يحب فى هذا الشعب الفقير شغفه بالمرح. ورغبته فى السعادة والأمن، تحدث وهو يعتقد أنه اقل البشر حظا؟ أين البؤس اذن؟ أين قوى الضغط؟ قيل أن هذه الصور التى تتزيف فى المأساة والعدم مثل الخيالات التى يشاهدها أثناء نومه. على الكردى أن يحاول جاهداً اكتشاف العنصر الهام فى تمرده. وعليه أن ينغمس فى دموعه. أو تهزه نكته كبيرة.

ليس كل هذا بالشئ المهم. فقد أراد الكردى شعباً مفصلاً على مقاسه: حزينا تحركه مشاعر الانتقام. ولكن أين يجده؟

يحلم أن يكون رجلا مؤثراً ، تتأجج دماؤه من القلق ، هذا العمل السخيف، الذى يسد به رمقه. ليس الا لتقليل عطشه نحو العدالة الاجتماعية ، هو حزين لأنه يقضى أغلب وقته مع زملاء اكثر بؤساً منه ، متزوجون وآباء للعديد من الابناء، يبدو أكثر بؤساً. مع نهاية كل شهر يأتى الزملاء الذين يرتبط عملهم بالكردى ويقفون صفا أمام مكتبه. يشعر الكردى فى هذه اللحظة أنه صاحب عمل يدفع لهم أجرهم أما

النقود التى تتبقى له، فعليه أن يصرفها كى يعيش فهو يحيا حياة بالغة البؤس، لكنها كريمة. المظاهر شئ مهم بالنسبة له. على سبيل المثال فعندما يضطر أن يأكل فول مدمس. يجد نفسه يحادث البائع بأنه لا يأكل سوى الفراخ وأن كثرة أكلها أفسدت شهيته. ورغم أن البائع لا تخدعه هذه الكلمات، فإن مظهره يقنعه بذلك.

من مقعده يتأمل الزملاء المساكين، ويرى فيهم سلسلة من العبودية. وهذه الساعات الطويلة التى يقتطعها من خزانته تجعله حساساً تماماً لآلام البشر، يحرك مقعده وهو يطلق تنهيدة عميقة. يرفع العبيد المشغولون بالأعمال الشاقة رؤسهم اليه وهم يلقون نحوه نظرة غامضة. فيرد الكردى عليهم بنظرة عدوانية يحتقرهم جميعاً. لايمكنه أن يصنع الثورة مع ناس مثلهم. أنهم هناك منذ سنوات. كم عام. لا أحد يعرف. ملتصقين بأماكنهم. تغطيهم الأتربة. ووجوه تشبه المومياءات. متحف حقيقى للرعب عندما يفكر أنه سيغدو مثلهم تنتابه رغبة فى الفرار، ثم يشعر أن ساعة رحيله لم تحن بعد. ويظل يعانى فى هدوء.

وكى يفر من ضغط زملاؤه. حاول الكردى الهروب الى أحلامه كعاشق. لم ير نايلة منذ ليلة الجريمة. أى منذ ثلاثة أيام بدأ يشعر بالأحداث المشئومة التى أحاطت بالماخور الذى تحرسه الشرطة. لذا تلزمه المخاطرة كى يقوم بمغامرة. فكر الكردى فى الفتاة وتخيلها مريضة وحيدة. تتوق لرؤيته وتلفظ اسمه عند النفس الأخير. ظل يفكر فى الامر فترة طويلة ، وتملكته الرغبة أن يسطر خطاباً لنايلة وأن يكلمها عن حبه وعن

معاناة الشعب. للأسف فإنه لايستطيع أن يضع فكرته موضع التنفيذ: لأنه لايجد قلمه. تذكر أن رئيس المكتب أخذه منذ فترة. بإدعاء استعماله. فى أول الأمر أحس الكردى بالغضب. لكن سرعان ماشعر أن شيئا يتزاح عن صدره فلديه الآن سبب يعتذر به عن كتابة الخطاب. وهو أن نايلة لاتعرف القراءة.

يطير بعض الذباب فى الغرفة. يحط على أنفه. حاول الكردى أن يضرب احداها لكنه فشل. يشعر أنه يفتقد الخفة الضرورية لهذا النوع من الاصطياد. من جديد وللمرة العاشرة أمسك الصحيفة التى فوق مكتبه وتصفحها بعينه. هناك عناوين ضخمة تعلن أن العالم يتسلح من أجل حرب قادمة. يبدو هذا فى الصحيفة كأنه شئ بعينه ولا يوجد له صدى مباشر فى الحياة اليومية. تم اعلان الأمر بطريقة مبتذله كأن الصحف تؤمن بالأمر الواقع. لكن الكردى وجد نفسه فى هذه اللحظة فى حالة نفسية جعلته حساسا لأقل خطر فإعلان مثل هذا التسليح يبدو له للوهلة الأولى انعكاسا لواقع شرس همجى. فهى ليست كلمات مطبوعة بصورة مبسطة فى صحيفة. لكنها تؤكد احتمال نشوب حرب موجهة ضد البشرية وخاصة ضده هو كأنهم يحفزونه أن يشهر كل أسلحته. شعر بألم مرعب. سوف تكون المذبحة مؤلمة سوف يسلخون جلده. لكن ماذا يفعل آنذاك؟ ظل جالسا خلف مكتبه لايقوى على الحراك. عليه أن يفعل شيئا. أولاً أن يشترى سلاحا فى عالم تتسلح فيه كل الدنيا. ومن غير المجد أن يظل أعزل. انتظر فسوف يقتلونك.. ولن

يتركوك تهددهم. يجب أن أتحدث مع جوهر؟ ابتسم وهو يتصور جوهر مسلحاً بمدفع رشاش. انها المرة الأولى التى يبتسم فيها هذا الصباح.

أمام هذه الفكرة المسليه لم يستطع الكردى أن يقاوم لفترة طويلة ذلك الغذاء الخارجى لقد أدى دور العدالة. قام من مقعده وصاح :

ــ عز الدين افندى.

أنه رئيس المكتب، رجل عجوز ضعيف البصر للغاية. تجعله نظارته أشبه بحيوانات ما قبل التاريخ. يلتصق وجهه بالملف الذى يقرأه. سأل بصوت أجش :

– ماذا هناك؟

ــ اصابتنى دوخة.

ــ ولا يهمك يابنى. صدقنى نحن نأسف لهذه الدوخة.

اعتاد الكردى على هذه الامور، يعرف أن رئيس المكتب يعتبره ممتازاً. وأن مجرد وجوده يعنى أنه موظف كفئ. فهو مثال سئ لزملائه المساكين.

– السلام عليكم.

قال عز الدين افندى : لا تأخذ الرجوع فى حساباتك، بل خد راحتك.

هز الكردى كتفيه. دون أن ينظر الى زملائه المترهلين. خرج من الغرفة. لم تكن الثورة بالنسبة له سوى تخفيف لتبرمه. ذات مرة تخلص الكردى من جلاديه فى حديقة الوزارة. لم يفكر كثيراً، الشمس صحوة. وقد ولدت فيها نسمة الربيع أفكاراً حساسة، عجل خطاه. آملا أن يرى نايلة، تملكه الفضول أن يعرف شيئا ما عن الجريمة. ثم اختلط بهذه الجريمة. ولايمكنه أن ينساها فقد جعله استجواب ضابط الشرطة يشعر بلذة الحوار التلقائى حيث أحس أنه قريب من الخطر. الخطر الحقيقى. فلم يكن الأمر مزاحاً. لم يكن الضابط يلهو حين استجوبه. ارتعد الكردى حين تذكر هذا الموقف فلأنها تجربته الأولى فهو لم يشك فيما تمثله السلطة. يريد أن يقف ثانيا أمام هذا الضابط الجاهل. فهو لا يخشى أحداً. ماذا سيحدث لو قبض عليه؟

تملكته دهشة. شعر أنه يفكر فى الضابط دون عداء أو حقد. لكن بفرحة ومتعة سادية، غريب ! تساءل. حتى الآن فإن مشاعره نحو نور الدين قد صبغت بحقد ثابت يمكنه من اختبار قوته. اكتشف فجأة شيئاً غريباً. فنور الدين ليس ضابطا متعجرفاً. لكنه فريسة رغباته. والمتاعب تلاحقه. وخلف هذه الأكذوبة ووراء الضغط الذى لا ينتهى الذى يمارسه على العديد من الناس يمتلك وجها مغامراً. فى هذا الوجه فكر الكردى فى مشاعره المضطربة. حاول أن يتذكر حادثاً واحداً بدا له اثناء

الإستجواب خارجاً عن حدود الروتين البوليسى، من هو بالضبط؟ أجل. لقد تحدث معه باللغة الانجليزية : اللغة الوحيدة التى يفهمانها. ترى لماذا؟ كان هناك شئ ما فى هذه اللغة الغريبة. كأن نور الدين قد ترك استجوابه وأراد أن تكون فيما بينهما رابطة من المحبة تذكر الكردى منظره البهيج وصوته الصافى. وقد امتلأ بثقة تتفق مع مظهره عندما حدثه عن علاقته بالفتاة نايلة. أحس أن الضابط خرج عن مألوف وظيفته الرسمية كى يغدو انساناً محبوباً، جذاباً، وقد كان. يالهى : أدرك الآن أن نور الدين ضابط الشرطة يمثل نموذج الضابط الشريف. فهو ليس غليظا بالمرة.

عندما توصل الى العمق الانسانى لهذا الاكتشاف. عبر الكردى حى الوزارات ثم دخل حارة شعبية. ووجد نفسه واقفا أمام بيت الست أمينة، أثناء طريقه لم يكن يفكر فى الفروق الاجتماعية التى اعتاد أن يكررها بوتيرة واحدة. ففكرة أن الضابط شخص جذاب جعلته بالغ السعادة، ونسى موقفه ضد السلطة. وتحول الخوف الذى أحسه خلال الأيام الأخيرة، الذى لم يبح به، الى تفاءل رائع. بالتأكيد فهو لايرهب جانبه ولهذا يسرع الآن للقاء نور الدين.

كست وجهه ابتسامة رضاء عندما طرق باب المترل.هتف زايد :

ــ الكردى افندى : يالهى لماذا تجئ هنا؟ المترل مغلق ونحن لا نعمل.

قال الكردى : زيارة ودية. دعنى أدخل.

ـــ نحن مراقبون. ألم يرك أحد؟

ـــ لا. لم يرنى أحد. إهدأ. أنا الرجل الخفى.

ـــ ادخل. فعين الشرطة علينا.

دخل الكردى، ونظر الى زايد وهو يغلق الباب :

ـــ ألم تشعر إنك فى سجن؟

قال زايد بصوت مرتجف : هيا، هيا. ياكردى افندى. أرجوك لا تمزح ـــ كدنا أن نموت من الانتظار.

ـــ من هذا؟

لم يرد زايد، رمقه واختفى فى الممر، وقد أصابه القلق. كأنما لدغه ثعبان.

ظل الكردى واقفا فى الصالة. أحس بالرضاء لهذه النكتة. بدا له انه لم يأت الى هنا منذ سنوات، رغم أنه لم يتغير شئ فى الغرفة. المائدة والمقاعد فى أماكنها. حتى الست أمينة التى بدت كأنها لم تتحرك من مكانها منذ ليلة الحادث المشئوم حين غزت الشرطة منزلها، رآها الكردى فى الظلام متكومة فوق الأريكة. اسندت يدها على خدها. وبدت كأنها تستحق الرثاء.

اقترب منها، وقال بوقار :

ــ تحياتى يا إمرأة. لا تقلقى فقد جئت لأدافع عنك.

رأته يدخل ويكلم زايد. لكن بدا انها لم تعد تهتم بهذه الضجة. قالت وهى تنظر اليه كأنه شبح :

ــ هل أنت مجنون لتجئ هنا؟ منعونى من استقبال زبائن. هل تريدنى أن أموت؟

ــ لست هنا كزبون يا إمرأة. جئت لرؤية خطيبتى.

ــ خطيبته ابطلوا هذا واسمعوا ذاك.

ــ أجل خطيبتى ! اذا كنتى لا تعرفين فإننى أخبرك.

تنهدت الست أمينه وسكتت. اعتادت الا تتعامل مع المجانين منذ طفولتها. بدا لها الكردى فقد صوابه. كأنما لم يعد يكفيها غباءاته. سألته بصوت أجش:

ــ ومتى حفل الزفاف؟

ــ قريبا جدا. جئت أعلن عليها نبأ سارا.

ــ حسنا اجلس، أود أن أكلمك.

أخذ الكردى مقعدا وجلس قريباً من الأريكة :

ــ ماذا لديك لتقولى؟

بدا أن الست أمينة تخرج من سباتها لأول مرة. تحركت فوق أريكتها. فرغم أنها تخشى الشرطة إلا أن زيارة الكردى ملأتها بالسعادة. أخيرا وجدت شخصاً يمكنه أن يسبر غور روحها الميتة، فهذا الموقف المأساوى فى حاجة الى من تثق فيهم. ليس أمامها أحد توليه ثقتها. فالبنات غبيات ومشغولات بالبكاء، حاولت أن تحدث زايد عن متاعبها، لكن بدا الخادم خائف من الشرطة. ويود أن يرحل، لقد جاء الكردى فى موعده : فسوف تموت بعد يوم أو يومين من الاختناق.

ــ ها أنت ترى ماذا حل بى يا بنى؟ بالله ماذا أفعل؟

قال الكردى : ولا يهمك.

ــ كيف. هل ترى أن هذا أقل أهمية. انها جريمة قتل فى بيتى.

ــ يحدث هذا فى أحسن البيوت. صدقينى. انك تلبسين الأمر أهمية لاداعى لها.

ــ ليسمع الله منك يابنى؟ أشعر كأننى أصبحت عجوزا.

ضحك الكردى ساخرا : أنت، عجوز؟ !

ــ اسكت. أنا فى سن أمك.

لم تكن احتجاجات هذه المرة بل اعتراض. الكردى يعرف ذلك وهو يراها ممددة فوق الأريكة مثيرة. فكبرت فى رأسه. أما الست أمينة فانها تفكر فى شئ آخر. فى الحوار الذى دار بلغة أجنبيه فى تلك الليلة المشهودة بين الكردى وضابط الشرطة. مالت نحو الأمام. أمسكت ذراع الشاب وجذبته اليها :

ــ انظر الى وقل الحقيقة.

سأل الكردى، وقد أصابه القلق من طريقتها : ماذا تودين أن تعرفى؟

هل صدقت المرأة فعلا.

– قل لى. ماذا قال لك باللغة الانجليزية؟

ــ من يا امرأة؟

ــ ضابط الشرطة. الذى كلمك بالانجليزية. لم أفهم شيئا. أعرف أنه كان بالانجليزية، لست غبية، فأنا أعرف اللغات.

ــ حديث خاص وليس عن الجريمة.

ــ هل أنت متأكد، ألم يكلمك عنى؟

ــ ولا كلمة. بشرفى. التزمى الهدؤ.

ــ لقد آذانى. ماذا فعلت لهذا الرجل؟ لماذا يعاملنى هكذا؟ هل أبدو قاتلة؟

ــ مهنته أخافة الناس، وأنا أيضا، حاول أن يثيرنى. لكننى أكررها عليك. الأمر ليس مهما للغاية.

ــ أود أن أصدقك.

فكرت لحظة، قال مبتسما :

ــ اعتقد هذا.

ــ ماذا تقصد؟

ــ لن يلزمنى وقت طويل كى أعرف أى نوع من الرجال هو. ليحفظنى الله.

تراجع الكردى فى مقعده وانفجر ضاحكاً :

ــ حقا؟

ردت الست أمينة : كيف لم تعرف. بعينيه الرقيقتين لاحظت ذلك. وكأنه سيقبلك على شفتيك.

قال الكردى : أشك فى ذلك.

لم يفت الكردى انها كرهت نور الدين منذ الوهلة الأولى. كيف فكرت فى هذا الأمر المخزى وهو الذى يسخر من السلطة. قالت :

ــ طالما انك رقيق معه. حاول أن تغازله.

ــ ماذا تقولين ياامرأة. أنا اكرهه كرهاً شديداً. من تتصورينى. لست وغدا كما تعتقدين.

ــ لا تفعل هذا ياصغيرى ! تريد أن تحطمنى. انظر أى حزن يغلف البيت. هؤلاء البنات اللائى يقضين أوقاتهن نائمات، حل النحس عليهن. كيف أجعلهن يعدن لتذوق العمل ثانية؟

قال الكردى : جئت لأنقذك. فلا شئ يمنعنى.

ثم قام.

ــ اتركك الآن. تحياتى. هل تنام نايلة فى حجرتها؟

ــ نعم. ألم تسمع. قلت لك انهن نائمات. لا يتصورن أن أحدا سيطرق بابنا. انا وحدى هنا حاول ألا يراك أحد وأنت تخرج، يبدو أن هناك مخبرا يقف أمام المنزل.

قال الكردى واعدا : لاتقلق. سآخذ حذرى.

بدت حجرة نايلة مثل بقية غرف البنات مشغولة بهن. وفى كل مرة يعبر الكردى العتبة يحس بحزن شديد. نوع من الهلع الشديد. يرجع هذا الاحساس المعقد لرائحة الأدوية التى تنطلق من الغرفة. هذه الادوية المخبأة فى الدولاب ذى المرآة حتى لا ينفر الزبائن. لايمكن أن يربطهم فى أفكاره. لقد عرف منها مرض عشيقته. المرض ينخز فى نايلة حيث لا تظهر أى جروح ظاهرية. ولا يمثل بالنسبة له سوى نوع من الشفقة، فى الواقع فإن هذه الروائح تجعله فى وضع مربك. يشعر كأنه فى غرفة مرضى. ويثير هذا الإشمئزاز. جاء بدافع ممارسة الحب وليس بدافع الشفقة.

انقبض قلبه، وتملكه احساس مهيب، وهو يرى الفتاة ممددة فوق السرير. بدا وجهها شاحبا مكسوا بحزن غريب. لاهثة الأنفاس. تعرف عليها الكردى بصعوبة وخلال لحظة نسى رغبته، ولم يفكر سوى فى انقاذها من موت محقق ومصير يلقى نفسه فى طريقها.

اقترب منها وناداها :

ـــ حبيبتى.

فتحت نايلة عينيها ونظرت اليه بدهشة :

ـــ أنت؟ !

ـــ أجل ياحبيتى. كيف حالك؟

ــ منذ متى وانت قلق على صحتى؟

أحست بالمهانة. كأنها تود أن تظل هادئة فى حدقها. أشارت انه لا يستطيع شيئا بالنسبة لها.

ــ لم استطع أن آتى قبل ذلك. ألا تفهمين أن المنزل مراقب من الشرطة؟

ــ اذن فالشرطة تخيفك الآن، كنت أتصور أنك يمكن أن تخترق النيران لأجلى.

ــ حقا يا عزيزتى. لكن لا يتعلق الأمر بالشرطة. الحقيقة أننى كنت مشغولا بأشياء أخرى. يجب أن أخرج من هنا بسرعة. قررت ألا تستمرى فى هذا النمط من الحياة.

ــ قررت. حسناً. دعنى أقول لك أنها حياتى. ولا أريد شيئاً آخر.

ــ افهمينى. أود أن أراك سعيدة.

ــ ياالهى. كيف أعتمد عليك فى أن تجعلنى سعيدة؟ فدخلك الصغير فى الوزارة لا يمكنه أن يجعل قطا سعيدا.

ــ سوف أكسب، عما قريب، الكثير من المال فى صفقة مهمة. صدقينى.

لم تكن تصدق كلمة واحدة مما يقول، فهو أقل أهمية، المهم بالنسبة له أن يخمد غضب نايلة بكذبات ملفقه تصدقها. فهى لاتطلب سوى أن تصدقه. تركت نفسها تستمع لكلمات حبيبها المنمقة. هذا الحب الرائع الذى تكنه للكردى يجعلها تشعر بالفخر. فهو يختلف عن كل الرجال التى قابلتهم فى بيت الست أمينة. رغم أنه يتصرف كالصعاليك. إلا أنه يسحرها بوضعه الاجتماعى فالكردى موظف حكومة. ويمثل جزءا من طبقة عالية من المجتمع. يخاف على مكانته. لم تفسر نايلة هذا الاحساس الغريب الذى يبدو ثقيلا على الشاب. فى أول الأمر اعتقدت أن مرضها سوف يبعده عنها، لكن، العكس. فقد دهشت وهو يقترب منها أكثر. جعلها هذا الموقف فى أمر حرج فهى تجهل أن الكردى يعتبرها ضحية لنظام اجتماعى يكرهه، وانها سواء كانت مريضة أم سليمة تمثل صورة لعالم يسير بقانون الوراثة. فهم ـــ فى صمتها ـــ أن حالتها الجنونية قد مرت، جلس على طرف السرير. بدأ يضع رأسه عليها ويداعبها. تركته يداعب يديها. ثم وجهها وجسدها. بدت سعيدة. ولمعت عيناها ببريق حار. كم كانت لحظات البعاد طويلة. فجأة تعلقت بأحضانه وانفجرت باكية :

ـــ ماذا بك ياعزيزتى؟

ـــ لاأستطيع أن أنسى المسكينة أرنبة ابداً.

قال الكردى : اهدئى ولا تفكرى. لن تعيديها بالبكاء. ليس بأيدينا شئ.

ـــ اسأل من يمكن أن يرتكب مثل هذه الجريمة الشنعاء. بدون سبب يذكر.

ـــ بالله لا أعرف. لكنه ربما رجل ذكى.

ـــ من قال لك هذا. ما الذكاء فى قتل فتاة مسكينة؟

ـــ على كل فلن يقبضوا عليه طالما تولى التحقيق ضابط جاهل كهذا.

ـــ هل رأيته؟ هل استجوبك مرة أخرى؟

ـــ لا. ولكن أتمنى أن أراه يوماً. لدىّ أشياء كثيرة سألقنه اياها.

ـــ ماذا؟ قل لى.

أطلق الكردى ابتسامته وقال :

ـــ لا يتعلق الأمر بالجريمة. ولكن بأمر شخصى فيما بيننا.

ـــ استحلفك ألا تلق بنفسك الى التهلكة معه. انا أعرفك.

قال محتجا : وهل أنا طفل، أنا لا أخشى أحداً. أما هذا الضابط. فسأفعل به مايحلو لى فعلا.

لم يعد نور الدين خصما بالنسبة له. حتى الآن. فالكردى يعتبر الجريمة كعمل شخصى بعيد تماما كأنه لم يحدث. فالمجرم موجود فى كل مكان. والبنت أرنبة لم تخنق وحدها. تساءل الكردى ان كان يعرف كل الناس الذين يأتون الى بيت الست أمينة. وبتركيز حاول أن يذكر كلا منهم، لكنهم كانوا بعيدين عن الاتهام فى جريمة كهذه اختفى فيها الدافع.

ساقته أفكاره الى تصفح وجوه البعض. لا. فكر أن يقبض على القاتل. لكنه لن يبلغ أبداً عنه، يود أن يعرف الأسباب التى دفعته الى ذلك، لعلها جريمة سياسية طالما أنه لم يسرق شيئا.

ـــ المهم هو أن يعرف السبب.

نظر الى وجهه فى المرآة. وتذكر الادوية المحبوسة فى الدولاب. فأدار رأسه:

ـــ سوف أخلع ملابسى.

قالت نايلة : الا تفكر سوى فى ذلك؟

امتلأ صوتها بالمرارة ، رد الكردى :

ـــ أجل ياحبيبتى فيما تودين أن أفكر؟

ـــ كيف يمكنك أن تحب فتاة مريضة مثلى؟ انا دميمة الآن للغاية.

ـــ المهم هو جمال روحك. ألم تفهمى. أنا أحب روحك.

وكى ترضى نايلة صديقها. آثرت الصمت. ولم تحاول مناقشته. فهى لم تعرف أبدا حقيقة ودافع حبه المزعوم. أى أفاق هو، يزعم أنه يحب روحها. وهذا سبب قوى. رأته يخلع ملابسه ويضعها منظمة فوق المقعد، وذلك الغبى، من يصدقه. ودت أن تضحك، لكنها آثرت الصمت. لم تكف عن التحديق فيه بعينين يملأهما الأسى. انها تفكر فى القاتل. لقد تولد الحزن منذ تلك اللحظة المأساوية التى سمعت فيها صراخ الست أمينة ونواح البنت وحيدة فى غرفتها. فهمت معنى الأصوات. تملكها اكتئاب شديد. وفيما بعد بدأت ترى تقاربا بين الجريمة ووجود الكردى فى ذلك اليوم فى البيت. هذا التقارب البسيط وموقف الشاب أثناء استجواب الشرطة يكفى لخلق شك لا يحتمل. فهل هو القاتل؟

أثناء الأيام الثلاثة التى لم تر فيها نايلة صديقها، حاولت أن تتخلص بدون جدوى من هذه الوساوس المرعبة. لكن كتمان الكردى غموض وعلاقته بضابط التحقيق يقويان من شكوكها. ودت أن تسأله. لكنها لم تجرؤ.

الآن. يقف الكردى، رغم أنه بقى وقورا، نسى أن يخلع طربوشه، فجأة أدرك ذلك فخلعه ووضعه فوق المقعد على ملابسه المنظمة. ثم تمدد قريبا من الفتاة، وضمها الى صدره كأنه يحتمى بها.

ــ قل لى. ألم يكن أنت؟

ــ من أنا يافتاة؟

ــ الذى قتلها..

ــ ماذا تقولين. هل جننت؟

ــ فكرت فى هذه الأيام انه أنت. أنا خائفة. أليس أنت؟

ــ بالتأكيد لست أنا. من ادعى عليك هذا؟ لم أقتل أحدا.

فكر وهو يضع رأس نايلة على كتفه فى انها تشك انه منفذ الجريمة.

أحس بالذعر، وطرأت على ذهنه فكرة جنونية. فلو جعلها تصدق أنه قاتل العاهرة الصغيرة، فبماذا يخاطر؟ انها فرصة غير طيبة أن يتدثر بمجد عاطفى فى يوم مكفهر.

أحس بالسعادة لفكرته. فكر أن يمارس الحب. ودون أن يتحرك بدأ فى مداعبة أذنها وهو يهمس لها ببعض الكلمات البذيئة.عندما أراد أن يمتلكها. نظرت نايلة فى عينيه وقالت :

ــ اقسم لى أنه ليس انت.

ــ اقسم لك. هيا دعينا فى هدؤ، ولاتتكلمى فى هذا.

لكن فى لهجته رنة شك. لعلها لا تصدق. شعرت نايلة أن دماءها قد بدأت تتثلج فى عروقها. وظلت لفترة طويلة باردة لا تتحرك بين ذراعيه.

- 7 -

جعلته قذارة المكان أكثر احساساً بالدونية. فى محل الحلوانى المثير للتقزز. يقع فى مكان بعيد من أحد الأحياء الشعبية. فى منطقة يؤمها البشر، والكلاب الضالة. هذا المكان نموذجى لمثل المقابلات التى تهم نور الدين. اختاره دونا عن الأماكن الأخرى كى يخفى علاقاته السرية. هنا تقل المخاطرة.

حقاً أن أيا من هؤلاء الأصدقاء الشبان لا يشاركه أفكاره. فهم لا يكونون سعداء حين يدعوهم الى هذا المكان الذى يصر نور الدين أن يتناول الحلوى فيه. يقدمون حلوى غير شهية خاوية الطعم. يتساءلون اذا كان نور الدين لا يود أن يكبح جماحهم. يشعر نور الدين بعدم ارتياح فى هذا المكان، ويخفى الظروف التى تجبره على اخفاء نفسه كمتآمر. كيف له أن يتصرف؟ خزى ضابط الشرطة ليس مصنوعاً كى يسهل له الأشياء، ففى أى مكان يذهب يشعر بالعيون مركزة عليه. ويحس أنه يتمشى بدون ملابس.

وكى يأخذ حذره أكثر. اختار نور الدين مائدة فى نهاية المحل. يجلس أمام سمير الذى آثر الصمت. فهو لم يفتح فمه منذ أن جاء. يوجد فوق المائدة طبقان يحتوى كل منهما على قطعة من حلوى رديئة الصنع.

لم يلمسها أى منهما. فهو لم يطلب الحلوى الا كشكل إجرائى. ربما لأنه جوعان. تكلم نور الدين كى يحطم الصمت :

ــ ألا تأكل؟

لقد أخطأ. أبدى سمير اشمئزازه. وهو ينظر الى نور الدين بإزدراء :

ــ أتود أن آكل فعلا ياسيدى. من تتصورنى؟

ــ معذرة. ياعزيزى سمير، لم أفكر جيداً، أرجوك الا تلمسها.

ــ بشرفى. لقد تعمدت هذا.

ــ ماذا؟

ــ أن تدعونى الى مكان قذر كهذا.

ــ شرحت لك أننى لا أستطيع أن أذهب الى أى مكان آخر حتى أوفر على نفسى مقابلة أشخاص أعرفهم.

ــ لماذا؟ هل تخجل منى؟

ــ ليس هكذا. تعرف جيدا ياسمير. أفهم أنه من الصعب ــ مثلك – أن أجلس هنا لكن الظروف تحتم.

ــ أتسمى هذه ظروفاً؟

ـــ أرجوك. هدئ نفسك.

استعاد سمير وجهه المستاء. لم يتكلم. ملأ نور الدين الاحساس بإشمئزاز. شاب فى الثامنة عشر. ذو ملامح جميلة. لايضع طربوشا، يرتدى قميصا ذا ياقة مفتوحة وسترة رمادية لا يرتديها سوى أبناء الطبقة الميسورة. لا يتشبه بالنساء مثل اقرانه، فهو بعيد أن يكون أحدهم. الرباط الذى يربطه بنور الدين هو الكراهية العامة. فسمير يكره فى نور الدين المبادئ الأخلاقية التى يعانى منها فى أسرته الكبيرة. يبدو ضابط الشرطة الخير مجسدا أما أبوه المدعى العام ـــ هذا القاتل الشرس ـــ فإن نورالدين أول من يكرهه. يستغل منصبه فى اشباع ساديته، وكلما قابل ابنه نور الدين زاد احساسه بالكراهية.

منذ بضعة أشهر. هجر سمير الجامعة التى يدرس فيها القانون، قرر أن يدرس الحياة بعيداً عن الكتب، فى الشوارع والأزقة.

لايعرف نور الدين لماذا وافق الشاب أن يقابله. ظل الأمر بالنسبة له سرا غامضا. حتى الآن لم ينجح فى أن يكسب ثقته. فهو بالغ الذكاء، يشعر أنه يسخر منه، وإنه لم يأت الا كى يثير استفزازه. قال وهو يتصنع الغضب :

ـــ معذرة. أعرف أن هذا المكان لا يليق بك. وأنا أيضا. يمكننا أن نذهب الى شقتى وهناك نستطيع أن نتحدث.

ـــ نتحدث. يالها من مصيدة ياسيدى الضابط. هل تتصورنى طفلاً؟

ـــ أنت تهيننى ياسمير. ماذا تخشى؟

رد الشاب وهو ينظر الى نور الدين بكراهية :

ـــ لا أخشى شيئاً. ولن أذهب الى منزلك.

علا الشحوب وجه نور الدين وقد صدمته النظرة الكارهة. يحاول أن يفهم شيئاً. لم يفكر أن يقابل هذا الشاب اللماح. فى كل لحظة ينظر الى الباب خشية أن يدخل أحد معارفه. لا يمكن لأحدهم أن يأتى هنا. انهما وحدهما بعيدان عن كل العالم. يهربان من كل الانظار. حتى صاحب المحل قد أدار لهما ظهره وانشغل بطرد الذباب. أما أغلب زبائنه فيأكلون الحلوى وهم واقفون فى الحارة يلفها البعض فى ورق جرائد. قوم صامتون. يبدو كأن معجزة تدفعهم للحياة. أغلق نور الدين عينيه، وكأنه لايصدق الواقع. وهو ينظر الى الشباب الذى يجلس أمامه ويتنهد.

ترك الحلوانى بعض الاطباق التى حطت عليها مجموعات الذباب. حاول سمير أن يصطادها بلا جدوى. تعود للطيران مرة أخرى وتحط على وجهه، دخلت احداها فى عينيه.قال غاضباً :

ـــ سوف يقتلنى هذا الذباب اللعين. هيا بنا.

ـــ من فضلك ابعد لحظة.

ــ لماذا؟

ــ ألست سعيدا بصحبتى؟

ابتسم سمير ساخراً :

ــ كيف. هذا من دواعى الشرف لى. لكن هناك شيئاً يضايقنى.

ــ ماذا؟

ــ أود أن أقول أنه لا يمكننا أن نتفاهم.

لم يجد نور الدين شيئاً يرد به. يملؤه هذا الرد بالخوف. يتمتع سمير بكبرياء غريب. يبدو مشدوها بنظرة سمير الكارهة. انه صغير للغاية كى يحمل كل هذه الكراهية. هل سمير ثورى؟

هل هو أحد الشباب الذى يحلمون بالهجوم على الحكومة؟ وتراهم الشرطة حاقدين؟ رفع نور الدين يده كأنما تذكر منصبه.

لكن هذا لم يدم طويلا. بدأ العرق يتصبب على جبينه. وتخلصت ملامحه من الاذلال. فهم فجأة انه لا يمكن أن يظلا صامتين طويلاً. يجب أن يقول شيئاً، أن يرتجل اى كلام :

ــ عزيزى سمير.

ـــ أجل.

ـــ أعدك. أن اصحبك فى المرة القادمة الى مكان فخم فى الحى الأفرنجى.

ـــ لقد أصبح حضرة الضابط أكثر تطوراً.

ـــ لكن هناك شيئا من الأفضل أن تفعله.

ـــ ماهو؟

ـــ أن تغطى رأسك، فليس من الائق أن تسير بلا طربوش.

ـــ دعنى أقول لك أننى ارتدى ما يعجبنى. ثم اننى أمتلك طربوشا.

ـــ عدنى وسأقدم لك واحداً.

فكر نور الدين أن مثل هذا الشاب حين سيرتدى طربوشاً سيكون أكثر إحتراما. تخيل ان سلوك سمير ملئ بحيوية الشباب.

ـــ طربوش آه أنا أود سيارة. لماذا لا تقدم لى سيارة؟

قال نور الدين : هذا فوق مقدرتى.

ـــ اهدأ فأنا أمزح. ماذا أفعل بسيارة. وحتى لا أخفى عليك سرا، فأبى النبيل يمتلك سيارة لم اركبها قط. أود أن أموت.

ـــ لماذا؟

ـــ لن أخبرك. فلن يمكنك أن تفهم.

من جديد ران الصمت بينهما. بينما تكاثر الذباب حولهما أكثر من ذى قبل. لم يتنهد نور الدين. فكر بسرعة أن الشباب بهذه الكلمات الأخيرة يبدو كأنه يدينه بتهمة عدم الفهم.

فكر أن يطرحه أرضاً. يعنى هذا انه غير أهل للثقة. نوع من الاهانة. لايمكن أن يتركه دون عقاب.

تنهد بعمق وهو ينظر مرة أخرى الى باب المحل. ثم قال مرتعشا كأنه يتحدث حول يوم القيامة :

كيف يمكنك أن تقول أنى غير قادر على الفهم. انت تتحدانى ياعزيزى سمير. أحب أن أعرف ماذا يهمك. وسأكون سعيدا أن أخفف عنك أحزانك. اتمنى ألا تشك فىّ.

ـــ انت لطيف ياعزيزى الضابط. وانا لا أعانى من متاعب.

ـــ اذن ماذا يجعلك كثير المرارة؟ معذرة. أعتقد أن علاقتك بأبيك ليست على مايرام.

ـــ لاتكلمنى عن هذا الرجل. أنا لا أحبه.

شعر نور الدين بأنه قد مس وتره، فهو لم يخدع، بكل ما يمكن أن يقرأه فى سمير. هو الكراهية.

ــ الى هذا الحد ياسمير. أنت تدهشنى. كيف يمكن أن تكره أباك الى هذا الحد؟

ــ هل تود أن تعرف؟ حسنا، الأمر بالغ البساطة، لأن أبى من طرازك.

سأل نور الدين شاحبا : ماذا تعنى؟

ــ لا. لا يتعلق بما تفكر. فأبى رجل يحب النساء. ويشبهك فى أشياء عديدة فى حقده.

ــ لا أفهم.

ــ قلت لك لن تفهم، لكن هذا ليس مهماً بالنسبة لى.

انها أول مرة يتكلم عن أبيه الى شخص ما. خاصة هذا الضابط. ليس هذا الحقد فقط ناحية أبيه ولكن لكل أبناء الطبقة الراقية. أليس نور الدين أحدهما. مرتزقة يدافع عن القتلة. الأكثر شراسة من ثعابين الصحراء. لقد نما سمير بين اخوانه الكبار الذين ساروا فى ركاب شرف أبيهم. أما هو فلم يذهب الا قليلا أملا فى مستقبل أفضل وأسهل. ألم يود أن يكون محاميا مشهورا؟ يشعر بالغربة فى الوسط المنحط، القذر، لم

تستمر رغبته أن يصبح رجلا مرموقا سوى فترة قصيرة. فقد استيقظ يوماً وشعر بالغثيان.

شعر بإزدراء لانهاية له تجاه نفسه. لكن أليس هذا الإزدراء موقفا سلبيا لم يقده الى شئ. فالألم الذى يشعر به يترلق من شبابه لم يقده الى شئ. فالألم الذى يشعر به يترلق من شبابه محاطا بهذا العفن الأبدى. يزيد كراهيته. فهو يرى أن عليه أن يحيا حياة الرجال. لأن أمامه مهمة عظمى.

حانت اللحظة كى يتصرف. يتردد أحيانا فى اختيار ضحيته الأولى. فبمن سيبدأ؟

ــ أعتقد أننى سوف أقتله يوماً.

ــ من؟

ــ أبى أتعرف أن هذا يسلينى كثيرا. قل لى سيدى الضابط هل يمكنك أن تفعل ذلك لأجل خاطرى؟

أخفض نور الدين رأسه. وبدأ قلبه يدق. قال متنهدا:

ــ أريد أن أنام معه.

ــ ياالهى. هل فقدت عقلك.

ـــ بدأت أفكار ما تشع فى رأسه. يبدو كأنه يتزلق فى بئر عميق. يصرخ أحياناً طفل فى الخارج بصوت قبيح. ينبح ككلب بصوت خائر. تمر عربة ترام فى الممر وهى تطلق رنينا أشبه بصفارة الانذار. كل هذه الاصوات تنخر فيه كأنها ضباب قادم من عالم غريب بعيد يرفع رأسه كأنه يغرق. ثم شد ياقته وثبت ناظريه على حائط الحانوت فى ركن علقت عليه لوحة تصور حفل زفاف شعبى. يقف العريس محاطا بصديقين يحملان باقتين من الزهور، ويقف الموسيقيون فى زيهم الرسمى. ومن الخلف يتكدس المدعوون. لقد بهتت ألوان الصورة. لكن خط الرسم لا يزال يحتفظ بعفويته.

رمق الشاب نور الدين وقال وهو يبتسم :

ـــ هل وصلت العبقرية الى هذا الحد؟

ـــ ماذا تقصد؟

ـــ يجب أن تتزوج ياسيدى الضابط.

نظر الضابط اليه بحدة. وهو يفكر انه لا يمكن أن يحتمل مقاطعة سمير. لكن ليس عليه أن يصل الى هذا الحد. عليه أن يهرب من هذا المكان الملعون. يشعر أن الكل بأمر ضده. عليه أن يكون شجاعا ويسأله :

ـــ ألن تأت لتناول العشاء معى اليوم؟

رد سمير : لا.

ـــ الا تود رؤيتى؟

ـــ اذا كان الامر يتعلق برؤيتك فلنتناول العشاء فى مطعم.

ضحك سمير، نظر الحلوانى وقد ملأت الدهشة عينيه. هنا دخل اثنان أو ثلاثة من الزبائن الى المحل، انها فضيحة. وذلك مايخشاه نور الدين.

ـــ اهدأ. من فضلك. فأنا لا أبغى الفضائح.

قال سمير : لست موافقا.

احتج نور الدين : اعتقد أن هناك سوء فهم فيما بيننا.

قام، عدل طربوشه. وبدا أكثر جدية:

ـــ معذرة. انا مضطر للذهاب. فوظيفتى تنادينى. سأراك مرة أخرى. تحياتى.

بمنتهى الكبرياء. وبينما ترتعد أهدابه أمام الحلوانى الذى بدا مبهورا. ثم خرج من المحل، انه يسرع الآن. اخترق الحارات المليئة بالاكشاك المصنوعة من الخشب والصفيح. سلك طريقه. فى هذا الحى لا يثير زيه كضابط شرطة مشاعر أحد. فكى يخشى شخص رجال الشرطة

عليه أن يكون لديه شئ يخاف فقده. وهنا لا أحد يملك شيئاً. فالفقر فى كل مكان. انه المكان الوحيد فى انحاء البسيطة الذى لا يمكن للسلطة أن تكون محترمة. يعرف نور الدين طبائع سكان هذه المنطقة. يعرف انه لايمكن لأحد أن يخرجهم من نومهم الأبدى. لايحملون حقدا فى قلوبهم. ولا كراهية. فقط هناك احتقار خفى تجاه القوة التى يمثلها. يقال انهم يجهلون وجود حكومة وشرطة. أو حضارة متقدمة. هذه الأرواح التى تجرح نور الدين فى أعماقه. وتكشف له عن مدى ضعف قوته. لايمكن أن يمنع تعصبهم ورفضهم. كأنما الأمر اهانة شخصية، يشعر فى كل خطوة انهم يخفون وجوههم. يتنهد وكأنه فريسة. ويحس انه من الغباء أن يجرى. أبطأ خطاه. هؤلاء الصبية يثيرون الخوف فى قلبه. ويحطمون أعصابه. قرر أن يسير على مهل. وأن ينظر أمامه. كأنه رجل يفكر فى خطة سينفذها، لكن هذا السلوك الذى صوره له كبرياؤه خيب ظنه. فبينما ينظر يمينه. سار فوق بركة مياه. فإنزلق وسقط أرضا. استند على كشك وهو يفحص حذاءه وأسفل بنطلونه الذى امتلأ بالوحل، أحس بالخجل وانه فقد كبرياءه. لم يتحرك لحظة. لا يجرؤ أن يرفع رأسه. أى مشهد مضحك قدمه لهؤلاء المتفرجين. تسلط عليه غضب وهو يلعن بصوت خفيض. اعتدل. انتظر أن يضحكوا. لكن أحداً لم يضحك. ربما أن هذا من لون السخرية طرفهم. تذكر احتداد سمير. انه لايقارن بهذه النظرات التى تتركز عليه كأنها تنزع عنه وقاره وتعريه من الزى الذى يكسبه أهميه. يمكنه أن يدافع عن نفسه ضد حقد سمير، وضد كبريائه. ولكنه لا يعرف كيف يرد على هذه النظرات المليئة بالقسوة والحقد. لا يبدو ــ فيهم ــ

شئ يدل على التمرد والكراهية. ينظرون اليه كأنه مخلوق غريب. ينظرون اليه كأنه مخلوق غريب. لماذا لا يقذفونه بالحجارة؟ انتظر منهم بادرة. لكن أحداً لم يتحرك. دائما السكون والغموض. تقف الآن وسط الحارة فتاة فى السادسة من عمرها. ترفع طرف ثوبها. ادار لها رأسه وأسرع.

تساءل عن معنى هذا المشهد الهذيانى، بدت له حركة الفتاة كأنها تنتمى الى الى عالم وحشى، انه مشهد خيالى، اخرجه من الركام والعفونة : ملعون أنا. هل حكم علىّ أن أعيش بقية حياتى وسط هؤلاء الرعاع.. شعر بمرارة تسد حلقه وهو يفكر فى الدور الذى سيلعبه. أية عدالة ساقته هنا، هذا المكان الميت. عليه أن يسجنهم جميعا، ظل نور الدين يتوهم، يعرف انهم اكثر قوة. فقد مر معهم بتجارب سابقة. يرفضون أن يساهموا فى بناء الحضارة. ولا توجد قوة يمكن أن تجبرهم على ذلك.

تذكر أنه يسرع الآن كى يحقق فى جريمة. ضحك ساخرا. هذه الجريمة حول مقتل عاهرة شابة سببت له الكثير من الضغوط. تصورها جريمة بسيطة. وعليه أن يوكل بمهمة أكثر أهميه. لكن عليه أيضا أن يعثر على القاتل الذى ينتمى الى طبقة راقية.

تنهد. لقد خرج أخيرا من هذا السعير. ليست هذه حضارة وشئ يمكنه احتماله، هاهو فى شارع. شارع حقيقى به سيارات وترام. ملئ بالناس الذين يحسون أنهم أحياء. يملأون شرفات المقاهى. يتحدثون وهم

يشعرون بالتفاؤل. كأنهم لايشكون من شئ وكأنما الحياة نكتة جميلة. من جديد أحس نور الدين بالمرارة. لماذا يكون هو الوحيد الذى يرى الرعب؟ فهؤلاء يعيشون كأنهم فى عيد. يريدهم أن يعوا مبادئ عالم يعيش فى أسى. بينما لا يعرفون اى نوع من القهر.

كان الرد سهلا للغاية فهؤلاء القوم لا يخشون شيئاً لأنَ ليس لديهم مايخشون، لكن نور الدين رفض أن يقتنع بهذه الفكرة. فهذا اثبات أكيد للفوضوية، رأى مخبرا يجلس على شرفة مقهى، اتجه نحوه. قام المخبر من مقعده :

ــ تحياتى لسعادتك.

انه فى الاربعين من عمره. يرتدى معطفا اسود. وحذاء طويلا ذا أزرار صفراء، لف شالا فوق رقبت النحيفة. وقد تدلى طرفاه كأنهما جناحا غراب. انه أعور. لكن عينه تساوى ثقلها ذهباً. قد فقدها فى احدى المعارك. سأله نور الدين :

ــ هل نجحت فى العثور عليه؟

ــ يجب ان أقر أن هذا عمل صعب. ومع ذلك استطعت أن أرصده. ابن العاهرة يغير مكانه كل ساعتين تقريبا.

قال نور الدين متعصباً:

ــ وأين هو الآن ؟

ــ فى رقم **17** فى هذا الشارع.

ــ انه فندق. ماأسمه ؟.

ــ لاأعرف. يسكن فى الطابق الأول. الغرفة أمام السلم.

ــ يمكنك أن تذهب. لست فى حاجة اليك.

ــ تحت أمرك ياسعادة البيك.

ترك نور الدين الشرطى الأعور وعبر الطريق. سار ببطء فوق الرصيف بجوار البيوت التى تحمل ارقاماً فردية. وعلى بعد خطوات وقف أمام بيت رقم **17**. تأمل الواجهة لحظة. يتطلع اليها من الشمال الى اليمين كأنه يخشى أن يراه أحد يدخل هذا الفندق المتواضع. فتح الباب ودخل الممر المظلم. لم يأت عامل الفندق لملاقاته، بدا كأنه منذ سنوات. صعد نور الدين السلم تدفعه غريزته. الى أن وصل الطابق الأول. رأى فى الظلام باباً فبدأ يطرق عليه بكامل قبضته.

لم يرد أحد على طرقاته العصبية. أصاخ نور الدين السمع. لم يتحرك أحد فى الداخل. ودون ان ينتظر أدار قبضته. وفتح الباب. ثم دخل الغرفة التى لم يكن بها ضوء كاف.. يسود الظلام عدا شعاع من الضوء يتسرب من النافذة المغلقة، الانطباع الأول الذى أحسه نور الدين

أن الغرفة خاوية. وشيئاً فشيئاً بدأت عيناه تعتادان الظلام. استطاع أن يرى السرير الذى تمدد فوقه جسد آدمى متدثر بغطاء.

ــ هيه استيقظ.

لم يتحرك الجسد المتمدد تحت الغطاء كأنه جثة. بدأ نور الدين يحس بالعصبية وهو يعتقد ان الرجل مات. اقترب من السرير بحذر ورفع الغطاء فرأى الرجل عاريا، ويدق قلبه من الخوف هلعا.

همس نور الدين:

ــ ليحفظنا الله .

هنا شعر أن زلزالاً أصاب النائم.

استيقظ وهو يدعك عينيه ويتثاءب. سأله:

ــ من أنت ؟

صرخ نور الدين وهو يود أن يحطم كل مقاومة الرجل النائم:

ــ شرطة.

بدت الكلمة بالغة الأهمية لشاغل السرير، فهو يود أن يعود ثانية للنوم:

ــ يمكنك ان تبحث فى مكان آخر. فليست هناك قطعة حشيش واحدة معى.

قال نور الدين: ليس الأمر كما تتصور. قم أريد ان أكلمك.

هتف يكن وقد استيقظ:

ــ تكلمنى. ياالهى. سيدى الضابط هذا من دواعى شرفى: هل أفيدك فى شئ ؟

ــ جئت اليك بشأن جريمة قتل.

ــ قتل؟! يانهار أسود.

ــ نهار أسود عليك.

أزاح يكن الغطاء كاملا. وجلس على السرير. وقد ثنى ساقيه. بدا وجهه بارز العظام شارد النظرات. أشبه بفقراء الهنود أنحله الصوم والتقشف. كرر:

ــ قتل. ماذا فعلت لأقتل؟

ــ سأخبرك. لكن رد علىّ أولاً: هل تعرف أن بنتاً من بنات منزل الست أمينة قد خنقت منذ عدة أيام .

قال يكن: عرفت ذلك.

ــ يبدو انك مألوف بالنسبة للمنزل.

ــ فعلا.

ــ اذن تعرف أرنبة.

ــ بالطبع. فهى أجملهن.

ــ حسناً. نحن متفقان. يمكنك أن تخبرنى أين كنت ساعة الجريمة؟

لم يترك ل"يكن" وقتاً ليفكر. لم يسأل أين كان ساعة الجريمة واثقاً أنه لن يخدعه. رد بطريقة عفوية:

ــ كنت نائماً ياسعادة البك.

ــ أين كنت تنام؟

ــ لاأعرف. فأنا أنام فى كل مكان.

ــ هيا يابن الكلب؟ ألا تعرف شيئا عن هذه الحكاية؟

ــ أبداً. بشرفى. لا أعرف شيئاً. يمكننى أن أعطيك بعض المعلومات عن تناول المخدرات لكن جريمة قتل. فهذا ليس من شأنى .

ــ دعنى أخبرك أنك المشبوه رقم واحد.

ــ كنت نائماً. كيف يمكن لضابط ذكى مثل سعادتك أن يقترف خطأ هكذا؟

زمجر نور الدين: دعك من هذه السخافات، سأجبرك على الكلام.

وضع فى ذهنه انه اكتشف السبب، فى أحد هذه الأماكن التى يتم فيها استجوابه. ورغم التهديد الذى يحيطه. يتنفس رائحة الغرفة القذرة. ألقى نظرة نحو النافذة المغلقة. ود أن يفتحها. لكنه خاف أن يدخل ضوء النهار. فالظلام يساعده. ويمنع أن يلحظ يكن إرتباكه. من الشارع صعدت أصوات العربات. صياح الحوذية، وأجراس الترام، أعطته هذه المسيرة البطيئة قوة الارادة. سار بضع خطوات باحثاً عن قطعة أثاث يستند اليها. جلس على طرف مائدة. سوف تفشل هذه الزيارة اذا لم يغير خطته. فصعوبة استجواب يكن إنه شاب يسخر من كل شئ، درس القانون ويتعاطى المخدر. وله علاقات عامة، ويعرف الكثير من عيوب الأحياء الشعبية، لم يصدق نور الدين حدسه. حاول أن يجد دليلا يقوده الى القاتل الحقيقى. يعرف أن هذا الماثل أمامه لا يمكن أن يمارس العنف. ولا يأخذه بجدية. يتعاطى المخدرات. لكنه لا يستطيع أن يقتل، أدرك نور الدين أن الرذيلة من الصعب أن توجد فى شخص جبان كهذا.

هل يسمح له هذا أن يأخذ الحياة بهذه السخرية؟ كما أن هناك بشراً لا يهتمون كثيراً بالفقر.

من جديد أحس بالمرارة تغزوه، نظر الى يكن. لايمكنه أن يجد فى هذا المشهد مايثير الرثاء. يبدو هذا الرجل عبثيا وضد الطبيعة. تتناثر منه السخرية فى كل مكان. قال نور الدين:

ــ انغمست فى قصة قذرة.

ــ معذرة ياسعادة البك. الدنيا أصبحت أكثرتسليه. أليس كذلك؟

ــ ما الذى جعلك متفائلاً هكذا؟

قال يكن: القنبلة.

ــ أى قنبلة؟

ــ ألم تسمعهم يتحدثون عن القنبلة ياسيدى. هذا يدهشنى. انها شئ يعرفه كل الأطفال. لقد اخترعوا قنبلة قادرة على تدمير مدينة بأكملها. ألا تجد هذا مسليا؟

وماذا عليك ان تفعل؟ بقى نور الدين صامتاً لحظة. محاولاً أن يفهم. فهذا الاستجواب سيكون الجنون بعينه.

ــ دعنا من هذه القنبلة الملعونة. فلن يغيرمن موقفك شيئا.

ــ اذا فكرت سعادتك فى خطر القنبلة قليلاً. فماذا يمكن ان يخشى المرء؟

أصبح الموقف غير محتمل. توقفت ضجة الشارع فجأة كأنما توقفت الحياة للأبد. شعر نور الدين فجأة أنه سيتقيأ وسيفرغ كل مابمعدته. سأل يكن:

ــ هل أنت مريض؟ آسف لما قلت. أنت تعرف حكاية القنبلة، انها نكتة، من الصعب صناعتها كى يلقوها فوق هذا المكان. فهى غالية الثمن. صدقنى.

ــ اسكت أيها القذر. ارتد ملابسك. سوف نخرج.

قال يكن متوسلاً: فى مثل هذه الساعة رحماك ياسعادة البك. ماذا فعلت لك؟

ــ ارتد ملابسك ياابن الكلب.

ــ تحت أمرك ياسعادة البك. لكن لا تدفعنى.

قفز يكن من سريره وبحث عن ملابسه التى ألقاها فوق المقعد. ارتدى الملابس بكل حيوية. ثم فتح باب الغرفة. خرج نور الدين من الغرفة يتبعه يكن وصلاح الى الشارع. تبادلا النظرات لحظة كأنهما يتعارفا. بدا يكن مبتهجاً:

ــ هل يمكن أن أدعوك لتناول فنجان قهوة. ياسعادة البك؟

ــ أمسك نور الدين يكن من ذراعه ثم سحبه بسرعة وهو ينطق مابين أسنانه:

ــ سوف أجعلك تقدمها لى فى السجن.

- 8 -

أضئ وجه جوهر من ضوء الشمعة المرتجفة كاشفاً عن المتعة التى يحسها. يجلس فوق المقعد الوحيد فى حجرته، وقد وضع يديه فوق جبهته. وأسند رأسه ناحية الباب الذى يفصله عن الجار. لقد مر كل ما يأمله.. تملكته الدهشة، وعت روحه أنه الشاهد الوحيد لتصرف شاذ.

تستبد به النشوة منذ فترة طويلة، استعاد جوهر— وهو يغلق عينيه — كل أوجه حياته. يتبادل بعض الناس الكلمات على الجانب الآخر من الحائط فيطرقون فى رأسه كأن شعلة تضئ ظلمات وعيه.

شُغلت الحجرة المجاورة منذ أيام بمستأجرين جدد. انهما زوجان. الرجل قورمة([1]) أتخذ من الشحاذة مهنة، أما زوجته فإمرأة فضوليه قوية البدن. كأنها عمارة من عشرة أدوار. تذهب كل صباح لتضع زوجها فوق رصيف أحد الأحياء الأفرنجية ثم تعود لتأخذه عندما يحل الليل. كى تعيده الى الدار. قد يقابلهما جوهر مرة على السلم. فيرى المرأة تحمل زوجها ال"قورمة" على كتفها كأنه اناء كبير، ترد على تحية جوهر بصوت أجش قادر أن يجمد الدم فى العروق لشخص لديه شجاعة كافية. تبدو شرسة متعجرفة. هى أقرب الى رجل منها كإمرأة.

[1] الترجمة الأصلية تعنى رجلا بلا ساقين أو ذراعين.

لم يصدق جوهر أذنيه. أرهفهما أكثر. وجد أنه من الصعب أن يتخيل الأمر الذى يدور فى الغرفة المجاورة. فالمرأة تقوم بدور الغيرة الأبدى بالنسبة لزوجها القورمة. سمع جوهر القورمة يدافع عن نفسه بحرارة. ضد اتهامات زوجته ويلقى عليها الاتهامات انها ساحرة تأكل الجثث. ثم بدأ يتأوه طالبا الطعام. لكن المرأة ظلت صامدة أمام نداءات بطنه. وإستمرت فى إهانته وكيل السباب له.

بلغ إعجاب جوهر مداه. لم يصدق أن هناك شيئاً يمكن ان يثير دهشته، الغيرة من رجل قورمة. حقاً فان جنون النساء لاحدود له. فجوهر يعرف النساء وغباءهن الأكبر وما يسببنه فى العلاقات الإنسانية. قادرات على أداء مشاهد الغيرة تجاه حمار.

حتى لو كان السبب غير مهم. بدأ يحس فى جيرانه بأشياء تسترعى الانتباه. فهذا المشهد العائلى، رغم أنه غير محتمل، يفتح له باباً حول الطبائع الانسانية، يالهما من جيران. دعك يديه، وهو يبارك المصادفة العجيبة التى جاءت له. دون أن يترك غرفته. الى هذا الثنائى الغامض. الذى يعلو على كل مايتمتع البشر من سخرية فى كل مكان. انه شئ عالمى، لكنه تخلف عقلى أكثر من أى شئ آخر ويمكن عمله دون أى جهد. أحس جوهر بدناءة عمله. منذ سنوات طويلة. وهو يعيش على نفس الوتيرة، وتلزمه فترة طويلة كى يمكن ان يحكم على تجربته: انه أثر بعد عين، لقد قام بتعليم الطلبة طوال عشرين عاما كل الفلسفات الكاذبة المعبقة بالغبار. كيف أمكنه أن يأخذ الأمور بجدية. ألم يكن يفهم

ما يقرأه، ألم تبد له هذه المحاضرات مليئة بالسفسطة؟ كان الحوار غير مناسب. حاول أن يضع كل شئ فى مكانه. كل نصوص التاريخ القديم والحديث التى آل على نفسه أن يعلمها لتلاميذه مليئة بآلاف الكذبات. يمكنه أن يكذب فى التاريخ. لكن الجغرافيا. كيف يمكن أن يكذب فى الجغرافيا. حسناً لقد توصلوا الى معرفة أسباب الزلازل. لكن المنهج يتغير فى كل عام. ويدهش جوهر أنه لم يحذر تلاميذه يوماً من هذه الكذبات كأن كل شئ يدور فى داخله. اقتنع هو نفسه ان هذه الكذبات الرسمية يمكن ان تغدو حقيقة.

لايمكن لكل هذه الكذبات سوى تبلبل الحياة. وتكون النتيجة عذابا بمقاييس البشر، يعرف جوهر ان المعاناة ليست جوهراً ميتافيزيقياً. يعرف أنها ليست مصيراً محتوماً لكل البشر لكنها نبع من رغبة مكبلة. رغبة قوى قد تبدو واضحة وبسيطة. تغرق المعاناة فى غياهب الظلمات والفوضى. وهكذا تتضح معالم عبثية الحياة. وتحت اسم العبث يمكن ان تقترف كل الجرائم فالدنيا ليست عبثاً. وان كانت مثيرة للرثاء. هى مليئة بأسباب العنف. وعلى كبار المفسرين أن يفسروا العالم للملحدين. ليس عليهم أن يقدموا الظواهر بدون تفسير. يخافون البديهيات.

من ناحية أخرى فأنهم يخاطرون بتفسيرالأشياء بأسلوب بسيط وموضوعى. قام بعض الغاضبين القدماء بتفسير شريف ومنطقى لبعض الظواهر. وجدت هذه الأشياء تأثيرها على الأجيال. لكن لايوجد

الشجاع الذى يمكنه ان يعبر عن أفكاره بوضوح. لقد أصبح كبت الفكر هو الأسلوب الوحيد لإنقاذ الانسان من سيطرة الطغيان.

ليس هذا هو السبب الذى دفع جوهر الى اعتناق أفكار غاضبة. لم يترك الجامعة التى كان يقوم بالتدريس فيها. أو شقته فى الحى الافرنجى الا بحثاً عن جذور جديدة للمعرفة. لم يكن يؤمن انه مصلح أو نبى. بل يهرب من المعاناة التى تخنقه كل يوم. هذه المعاناة التى تغرق فى داخله أين هى الآن، انه هنا تتصارع تياراته أمام ساحل جزيرة صغيرة أوى اليها جوهر. يتساءل كم من الوقت سيظل الحى الشعبى يقاوم الأنفاس المسمومة، بلا شك سنوات، ربما قرن، ياله من حظ يجعله يعيش من عالم يتلذذ بالقتل. توصل جوهر الى هذه المقولة المهمة: ليس للقوة الدامية أى تأثير على الأشخاص الذين لا يقرأون الصحف. فالمعاناة لايمكن ان تمس هؤلاء الناس. ويبقى الحى الشعبى هو المكان الوحيد البعيد عن العنف. يمكنه أن يعيش فيه حياة صحية تحركها الدوافع البسيطة، أما أى مكان آخر فيبقى جنوناً. ثم ان هناك عدوى أخرى هى الإذاعة: فاختراع الراديو يمثل بالنسبة لجوهر أكبر اعلان عن الشيطان. هذا الصندوق الصغير الذى يراه فى كل مكان يبدو أكثر احداثا للضجيج من كل المتفجرات مجتمعة.

مر وقت طويل أحس بعده أن الصمت علا الغرفة المجاورة. أصاخ السمع محاولا ان يسمع صوتها. يود أن يعرف كيف انتهت الأمور. على كل فهو يبدو شيئاً مرضياً. فالذى يحدث فى الغرفة المجاورة أكثر تهذيباً من

كل ما تعلمه سنوات طويله، فمشهد الغيرة هذا يعلن عن حقيقة مهمة. بدائية الإنسان. فرغم كل العجز الذى أصاب القورمة. لكن لا تزال القوى الحسية ماثلة فيه. ليس لأنه رجل يبحث عن الجنس ولكن لأنه يأمل ـــ مثل كل الناس ـــ أن يكون مركز الكون. كاد ضوء الشمعة أن يخبو. ثم بدأ يتحرك ويرتجف. كاشفا عن خواء الغرفة، رمش جوهر بعينه وهو يتطلع حوله كأنه استيقظ من النوم لتوه. معجباً بفقر مسكنه. لايوجد أى أثاث عدا أوراق الصحف التى يستخدمها كحاشية: كومة من الأوراق المكدسة المبللة لم يفكر أن يضع أوراقاً أخرى مكانها. سوف يطلب بعضا منها من الكردى. الوحيد الذى يشترى الصحف ممن يعرفهم.

غريب ان يقوم بتنظيم المكان الذى سينام عليه كأن شيئاً لم يتغير. كأنه لم يقتل هذه العاهرة الصغيرة. هل غير هذا فى الأمر شيئاً، فالأمر لا يعدو حدثا. تساءل عما يمكن أن يحدث له، وعما إذا كان ما اقترفه قد ارتكبه فى زمن بعيد حين كان يعيش عيشة الأشراف والموقرين. بالتأكيد كان سيعد نفسه وحشاً ولا يستطيع أن ينام من الندم. أما الآن فلا أهمية لشئ. أليس هذا تقدماً ملحوظاً؟ لقد قطعت هذه الجريمة كل الأواصر التى تربطه بماضيه الكاذب. خلاص حقيقى. لم يستبعد متاعب الضمير، لكنه يؤمن أن ما حدث ليس سوى تجربة.

بدأ القورمة يتأوه من جديد، أعلن عن جوعه وهو يكاد يبكى. لكنه لم يسمع صوت المرأة.

ماذا تفعل؟ تخيلها جوهر تأكل أمام القورمة الذى لاحول له ولا قوة.

سعل، سمع طرقاً على باب الحجرة:

ـــ من؟

ـــ أنا ياسيدى.

أنه صوت يكن الذى يبدو مبتهجاً خلف الباب.

ـــ ادخل يابنى: أهلاً وسهلاً.

فتح يكن الباب. أدخل رأسه أولاً. ثم جسده مستديراً حول نفسه فى حركة بارعة متقدما نحو جوهر. حياه منحنياً. ثم فرد قامته وانحنى مرتين أو ثلاثاً. كأنه تحت أمره. هناك شئ ما فى هذه التحية التى يطلقها هذا الصعلوك البسيط، أحس أن يكن يكنّ له فعلاً الكثير من الاحترام والمحبة. لكنها احترامات تبعث دائماً على تسليته وقد إعتاد عليها.

قال يكن عندما لم يأمره جوهر:

ـــ أرجو الا أزعجك ياسيدى.

ـــ ابداً. هذا يسعدنى. إجلس.

اراد جوهر أن يقوم ويترك له المقعد. عارض يكن بشدة. وكأنه يخشى ازعاج أستاذه:

ــ أبداً. هذا يسعدنى. إجلس.

ــ ابداً. أنا فى خدمتك. سأجلس أرضاً.

تراجع نحو الحائط وهو يرقب جوهر بعينيه. ثم جلس أرضاً. عقد ساقيه حول بعضهما، تبدو طريقته غريبة. وكأن هناك سبباً لهذا. يبدو جوهر وقد أصبح فجأة شخصاً أسطورياً معلناً عن أمور أخرى تبدى حبه البسيط.

ــ لعلك تسأل ما الذى أتى بى ياسيدى.

رد جوهر: لعلها الرغبة فى رؤيتى .

ــ بالطبع. لكن هناك شيئاً آخر.

ــ ليحفظنا الله. خيراً.

تخلى يكن عن مظهره. وضحك ساخراً:

ــ تملكتنى قوى الجحيم ياسيدى: زارنى اليوم ضابط شرطة. لاأعرف كيف عرف مكانى. كنت أقيم فى هذا الفندق.

قال جوهر: اعتقد أنه لم يجد شيئا طالما أنك هناك.

ـــ لا يتعلق الأمر بالمخدرات. أعتقد أيضاً أنه جاء لنفس السبب. ولكن لا، ابلغنى أنه يبحث عن قاتل، بإختصار يشتبه أننى قاتل الفتاة أرنبه، وجه لى هذه التهمة.

لم تبد عن جوهر أية حركة. ليس فى حاجة أن يكشف ما يضره. فالشرطة تقوم بواجبها. مسألة إجراءات ولا يهمه هذا فى شئ.

ـــ لماذا يشتبهون فيك ياولدى؟

ـــ يقولون أن القاتل من رواد الماخور. ولأهم يعرفوننى. فقد قبضوا علىّ. لأننى صاحب سوابق، إعتقدوا الهم وجدوا ضالتهم. لكن للأسف. ليس لديهم دليل ضدى.

ـــ ماذا قال ضابط الشرطة؟

ـــ اسعد هذا السؤال المنتظر يكن.

ـــ حاول استفزازى. لكننى سخرت منه.

ـــ سخرت منه؟!

ـــ طبعا ياسيدى، توعدنى بأشد العقاب، وكى أرد على تهديده حدثته عن القنبلة.

ـــ أى قنبلة ياصغيرى؟

ـــ القنبلة ياسيدى، انت تعرفها جيدا تلك التى يمكن أن تدمر مدينة.

ترك جوهر يكن يتكلم عن تفاصيل مقابلته بضابط الشرطة. وكأن ما حدث شئ عجيب. لكنه الآن لم يعد يفهم. هل وقع صديقه تحت تأثير المخدر؟ لم يستطع أن يربط بين تهديد الضابط ورد يكن. هل يلعب يكن دوراً ما. ليس هذا مستحيلاً.

ـــ كلمنى يابنى. عن دور هذه القنبلة فى الأمر.

ـــ الامر بسيط ياسيدى. حاولت أن أجعله يفهم خطر القنبلة المدمر. ولم يكن هذا كل شئ. فقد مست هذه الحكاية شغافة وبدا شاحباً. أصابه الخوف بالمرض وأصبحت رؤيته مضحكة. اشفقت عليه اخيراً. أكدت له أنها قنبلة تكلف غالياً وأنهم لن يخاطروا بإلقائها هنا.

هز جوهر رأسه بكثير من السذاجة.

ـــ انت مخدوع يابنى. سوف يلقونها على أمهم. فهؤلاء الاقذار لايحترمون احداً.

ـــ اتعتقد هذا ياسيدى؟

ـــ أنه الشئ الوحيد الذى أؤمن فيه.

ــ أنهم مجانين.

ــ لا، لاتحاول تهوين الأمر، ليسوا مجانين، بل على العكس، فهم فى منتهى الوعى. وهذا يجعل الأمر أكثر خطورة.

بدا يكن مندهشاً. كيف أمكن أن يبدى هذه الخيالات. كيف يصدق سذاجة أن القنبلة هى سبب كل المآسى. لم يخدع جوهر ابداً فى محاكمة أولاد العاهرة الذين اخترعوا القنبلة.

ــ حدثنى ياسيدى. هل هناك فرصة أن تنفجر بين أيديهم. هذه القنبلة القذرة.

ــ لااعتقد. انهم بالغو الحرص. والانتباه حتى لا يحدث هذا الهم.

قال يكن خائباً: خسارة. وددت أن تنفجر بين أيديهم وهم يستعدون لتفجيرها. سيكون هذا أكبر نكتة فى القرن العشرين. أحب أن أفرح ياسيدى.

ــ كفاك مزاحاً. يبدو هذا القرن كأنه تجاوز كل القرون الأخرى فى أمور الفاشية.

ــ انت على حق. فلا تخشى شيئاً.

سكت يكن، لم ينسه الحديث عن القنبلة وآثارها التدميرية الخطر الأخطر مثولاً من القنبلة. لم تخمد نظرات جوهر كأنه يخشى أن يراه

متخفياً. جالساً فوق مقعده وقد كشف نور الشمعة عن وجهه. الغرفة خاوية، يبدو جوهر مندهشاً تماماً. لكن يكن لا يمكن أن يقدر مدى هذه الخسارة، فالحب الذى يكنه لجوهر أهم شئ فى حياته. يجب أن يضع نفسه تحت خدمته من أجل انقاذه. وهذا هو المهم.

سمع فجأة حواراً يدور فى الجانب الآخر من الحائط. يتوسل القورمة أن تعطيه شيئاً يأكله، بدا أضعف مايكون. تبدو تأوهاته أشبه ببكاء طفل حديث الولادة.

سأل يكن: ماهذا.

قال جوهر: جيران جدد. الرجل "قورمة:. أما المرأة فأشبه بالحائط. تحمله كل يوم على كتفها وتضعه فى مكان ما من الحى الأفرنجى كى يتسول. وتعود لتأخذه فى المساء. وهو الآن يشكرها على هذا الصنيع فبدونها لا يستطيع شيئاً.

ـــ هل يتأوه بهذه الطريقة؟

ـــ أجل، يطلب طعاماً.

ـــ لماذا لا تعطيه شيئاً يأكله.

ـــ لو قلت لك ياعزيزى يكن فلن تصدق. انها تغير عليه؟ وفى هذه الساعة تعاقبه.

ـــ مستحيل. غيرة من "قورمة". لماذا. هل يخونها؟

ـــ كل شئ ممكن يابنى. أما كيف عرفت أنه يخونها فلا أعرف. يجب ان ننتظر كل شئ من النساء. حتى مع "قورمة". المهم انه يستطيع ممارسة الحب.

ـــ لاأصدق. على كل حال فهى تنتقم بطريقة نبيلة. تتركه يتضور جوعاً: قل لى الا يمكن أن تفعل شيئاً من أجله. لايمكن أن نتركه ياسيدى. أود أن أكسر فك هذه المرأة.

ـــ ليحفظك الله يابنى! انت لاتعرف هذه المرأة، انها شرطى حقيقى. أقوى منك

بعشر مرات لن تنال منك سوى بلكمة.

أثار هذا الوصف للقورمة الهادئ بعضاً من نخوة يكن.

ظلا صامتين لحظة. بينما القورمة يتوسل. مما ترك أثراً فى يكن. وأحس بالجوع هو أيضاً.

ـــ حقاً ياسيدى. الا تعتقد انه لا يمكننا أن نفعل شيئا له؟

ـــ لا. فهذا لن يحل المشكلة. سوف تعطيه ما يأكله. الا ترى أن رجلا كهذا أشبه بمنجم ذهب. ما احساسك إذا غارت عليك إمرأة؟

ـــ اعتقد ان أى امرأة لايمكن أن تغير علىّ. ومع ذلك أشعر بالرعشة فى كل أعضائى. حتى لو كان الأمر خطأ.

ـــ سوف ترى أنك ترغب مثل هذا الرجل .

ساد الصمت. بينما غرق يكن فى دهشة. هل يهتم جوهر بهذه الامور العائلية الى هذا الحد، يبدو غريباً. وكأن خطراً يحيق به. يتابع فرحاً وقائع المغامرة الدامية منذ أن دخل حجرته. ينتظر يكن أن يصرح له جوهر باعترافه عن جريمته. لكن شيئاً لم يحدث لماذ؟ ألا يعتبره الانسان الذى يمكن أن يبوح له بكل شئ. فهذا الأمر يجعله غامضاً يغوص فى شك غريب. هل خدع؟ وماذا لو لم يكن جوهر القاتل؟ زاد شكه بعد الظهر حين مشى مع الضابط فى الحوارى الشعبية، لم يسمع سوى تهديدات الضابط بينما انشغل يكن بتحية من يعرفونه. عندما تذكر أمراً مهماً. لقد قدم جوهر العزاء فى موت أمه. وهو لم يحدث أحداً عن موت أمه سوى أرنبة، العاهرة، ثم قتلها. اذن فجوهر آخر شخص رآها على قيد الحياة.

ومع هذا فهو يتألم حين يفكر أن جوهر قاتل. تردد لحظة. ليس أمامه وقت يضيعه. يعرف أساليب الشرطة جيداً. ولايمكن لجوهر أن يدافع عن نفسه اذا وقع تحت استجواب قاس. ومن ناحية أخرى. هل يرغب فى الدفاع عن نفسه؟

ـــ فى الواقع ياسيدى. جئت لأخبرك أن تكون حذرا.

ـــ مم يابنى؟

قال يكن: هناك خطر كبير يكمن هنا.

قال جوهر: ليس الخطر كبيرا كما تعتقد.

لم يحاول أن يفكر. لم يسأل كيف اكتشف يكن أنه القاتل. قال بعد لحظة:

ـــ لقد عرفت إذن.

ـــ سيدى.لاافهم كيف حدث هذا.

قال جوهر: وأنا لاأعرف كيف أشرح لك. يبدو أن هناك شخصا آخر كان مكانى. لكن لا تعتقد اننى أحاول أن أبرز أن أرنبة كانت وحدها. وطلبت منى ان أسطر لها خطاباً ودعتنى الى غرفتها. وطيلة وقت طويل لم أفكر سوى فى المخدرات. وطريقة الحصول عليها. رأيت أساورها فجأة. هى التى بعثت فى فكرة القتل. كان يجب أن أحصل على هذه الأساور.

قال يكن: لم تكن الأساور تساوى شيئا كبيرا فى تلك اللحظة.

قال يكن: اذن فأنا المذنب. أعذرنى. كان يجب أن أكون هناك عندما تحتاجنى. على كل حال. فلا يتعلق الأمر بتبرير الحدث. المهم أن هرب بأقصى سرعة.

ـــ لماذا أهرب؟

ـــ حتى لا يقبضوا عليك. هذا الضابط الذى جاء ليرانى. انه شيطان. لن يهدأ حتى يقبض عليك. أريد أن أساعدك ياسيدى. اسمع نصيحتى. أستحلفك. لقد تأخر الوقت.

ـــ عزيزى يكن، أُقدر مشاعرك. لاأريد أن تزج بنفسك فى هذا الأمر. سوف أتصرف وحدى.

ـــ لايمكنك أن تدافع عن نفسك مع هذا الرجل. سافر الى سوريا. انها الفرصة الوحيدة.

ـــ كيف أسافر؟

ـــ سوف أدبر النقود اللازمة لسفرك. اعتمد على.

ـــ ستقتل شخصاً. إذن لن ننتهى.

قام يكن. ظل لحظة بدون حركة وهو يتطلع الى جوهر. ثم اقترب منه، أنحنى وأمسك يده ورفعها الى شفتيه وهو يقول:

ـــ أنت الانسان الوحيد الذى أحبه وأحترمه فى هذه الدنيا. يمكنك أن تأخذ حياتى.

تأثر جوهر. وقد اكتسى بإبتسامة حزينة.

ــ لاتكن جاداً يابنى. فهذا سيزيد المشكلة. ثم من أخبرك أن هناك قنبلة سوف تنظم كل الأمور؟

فى الغرفة المجاورة. تتأوه المرأة الآن. تزمجر كأنها حيوان يختنق. لم يفشل جوهر فى أن يتكهن ماذا يحدث. قال:

ــ أسمعت. لقد انتهى كل شئ. انهما يمارسان الحب الآن.

ــ أنت واثق ياسيدى؟ آه. أريد أن أرى هذا. إنه مشهد صامت.

قال جوهر: لم أعهدك متلصصا.

ــ فى حال كهذا يصبح كل العالم متلصصاً.

وبعد لحظة سمعا صوت اناء من الحديد.

– 9 –

تقدمت الترام رقم 13 المتجهة الى الحى الافرنجى وهى تدق أجراسها. كان على السائق، أن يضغط بقوة على الجرس كى ينبه المارة الذين يمشون ببطء فوق القضبان، كأنهم يسيرون فى قرية آمنة. ولاأحد يرى المحصل المسكين الضائع وسط الركاب. فقط يسمعونه يطلق صوته الأجش مطالباً أن يفسحوا له مكانا. فهذا كل ما يأمله.

فعندما يتعطل الترام يضطر الى الترول لمراقبة السيارات وإصلاح العطل. أما بالنسبة لدفع ثمن التذكرة. فهذه ليست مسألة نقاش.

وقف الكردى يشعر بالمرارة لوجوده فى مثل هذا المكان البدائى. عليه أن يهرب من هذا الترام اللعين الذى يسير بطريقة مزعجة. لقد تأخر الوقت، وكل المحاولات مكتوب عليها الفشل نتيجة لهذه الحشود الآدمية المكدسة على الأبواب. تذرع الكردى بالصبر، ليس عليه سوى الإنتظار. طبقوا طربوشه أثناء زحمة الصعود. فالتصق تماما فوق رأسه ولم يحاول أن يدفعه. وجد نفسه محاطاً بموظف صغير نائم يرتدى عوينات. وامرأة بدينة ترتدى ملاءة لف. تنعبث منها رائحة الثوم. ورغم أن هذا الأمر ليس من خصال الكردى. الا أنه بدأ فى إثارتها محاولاً تناسى وقفته التى يرثى لها. حاول أن يدير رأسه كى يعرف سن المرأة قبل أن يثيرها.

ولكن ما رآه أصابه برعشة. وقف فى مكانه، فالمرأة البدينة تزيد على الستين عاماً تبتسم له بطريقة مبتذلة. وهى تكشف عن فمها الخاوى من الأسنان. وهى تستكمل مهمتها بينما وقف الكردى متسمراً فى مكانه.

الساعة الآن السادسة مساء. والركاب يتزايدون. سحبت المرأة ساقيها، لكن رائحة الثوم لاتزال تنبعث منها. ود الكردى أن يتقيأ. أغلق عينيه وحاول أن يركز انتباهه فى صوت الجرس الذى يطلقه السائق دون توقف. انه ليس متجهاً الى نزهة ليجد نفسه فى ترام كهذا. فى طريقه الى الحى الأفرنجى يضع الكردى فى رأسه فكرة أخرى. فمنذ أن اتهمته عشيقته بقتل أرنبة وهو يؤمن أنه مضطر أن يرتكب جرماً يكافئ به كذبها. يمكنه أن يسرق. فى المساء فكر فى خطة موضع تنفيذ. يعرف الكردى ــ وهو ماثل أمامه دائماً ــ أفخم محل مجوهرات فى المدينة. يقع فى شارع فؤاد، ويعتقد أنه بالغ الدهاء كى يستولى منه على جوهرة غالية الثمن، تردد فى الطريقة التى عليه أن يتبعها. فرغم غثيانه الا أنه حاول أن يتذكر كل مايتعلق بالجواهر التى يقرأ عنها فى المجلات المتخصصة، أو الروايات البوليسية. ما الأسلوب الأمثل؟ يود الكردى أن يحقق جديداً فى هذا المجال. فعلى ثورى مثله ألا يتبع نفس طرق اللصوص المتشردين. فحبه العظيم يدفعه. لكن لاتوجد فكرة ماثلة فى ذهنه.

شعر فجأة بعينين تنظران اليه. فتح عينيه وتأكد من صدق حدسه. فهناك شخص يتأمله بدقة. شخص يشع البؤس فى وجهه، الأعور الجالس قريباً من الباب المواجه له مباشراً.

تألم الكردى وهو يشعر أن الأعور يحملق فيه بعينه العوراء. كأنما العين السليمة لم تعد ترى.

ظل الأعور ينظر اليه بحدة. وقد شع الهذيان من عينه الوحيدة. لكن الكردى لم ير سوى العين العوراء فلا تتلاقى نظراتهما قط. استغرق هذا المشهد بعض الوقت. تساءل الكردى عما يوده هذا الرجل. هو لم يره من قبل، شعر بالعصبية وهو يحاول أن يتلافى الرجل ويفكر فى موقفه المثير للاستفزاز. وفى مدى تخلصه من هذا الموقف: سوف أبصق على وجهه ولذا اذا كان ينظر الىّ، لكنه خشى أن يثير قلاقل فى نفس اللحظة التى يستعد لارتكاب جريمة سرقه جسورة. يحتاج فيها الى أعصاب باردة.

توقف الترام فى محطة. ثم تحرك من جديد. رأى رأس المحصل تخرج فجأة عند الباب، ياله من رجل ماهر استطاع أن يؤدى هذه الحركة. صاح.

ـــ من لم يأخذ تذاكر؟

لم يرد أحد على هذا السؤال. يبدو المحصل نحيفاً. ذا وجه شاحب يرتدى ملابس غير مهندمة. بدا وقحاً وهو يهدد بإيقاف الترام. فيخرج الركاب نقودهم مغتاظين كأنما يدفعون للمحصل غرامة. تحركوا جميعاً عدا الأعور. فهو لايزال يركز نظراته للكردى بعينه الواحدة.

وجه المحصل كلامه اليه وقد فرغ صبره:

ـــ أنت يارجل.

رد الأعور بلهجة جافة دون أن يدير رأسه: مخبر.

تصور الكردى أن الترام سيقف وأن كل الركاب سيقفزون منها. تقدم نحو الباب وقفز من الترام فوق الرصيف. عندما وقف يسترد أنفاسه. كانت الترام قد اختفت تماماً كأنه كابوس يتلاشى. أحس بالصدمة وهو يسمع الأعور يعلن عن هويته. أى خوف اعتراه: حمدا لله أنه وقع فى طريق مخبر غبى كهذا. لكن لماذا كان يراقبه؟ ليس ـــ بالتأكيد ـــ لأنه بعتزم سرقة جواهرجى. فهو لم يتخذ قراره بعد. فلا يمكن للشرطة أن تقرأ أفكار الناس. فلو كان يراقبه فهناك سبب آخر. لم يتأخر فى بلوغ السبب. فالشرطة تعلم أنه ثورى. وقد أخبر الضابط بهذا أثناء الاستجواب فى الماخور. وعليه فإن الأعور يقوم بمهمته، ابتسم الكردى فخوراً وهو يتنهد. شعر كأن نشوه تملأ رأسه. إذن فهو ثورى حقيقى. تطارده الشرطة. ويثير قلق السلطات العليا. ولن يسخر جوهر – كالعادة – منه عندما يعلم أية مراقبة رهيبة ترصدته. أدار رأسه فى عدة اتجاهات كى يرى اذا كان يتبعه أحد. لكنه لم ير أى أثر للأعور، غمرت الأضواء شارع فؤاد فى وسط الحى الأفرنجى الذى سار فيه الكردى بخطى مضطربة واحساس بالقلق انه يسير فى مدينة أجنبية. يتساءل دوماً عما اذا كان فى بلده، لا يصدق. يبدو كل رجال الأعمال كأنهم خارجون من كوارث. تكتسى الوجوه ببعض علامات التحذير،

ترى ماذا ينقص هذه الحشود الغفيرة. يتعجب من سلوك هذه الجموع التى اعتادت أن تسير حياتها.

يأسف لتلك الحارات المليئة بالطين والحصاه. هناك الكثير من الآمال فى الأكشاك المصنوعة من الصفيح فوق أرصفة رطبة. يعيش أعداء الشعب فى هذا الحى. انهم قلعة الضغوط، يتضح الثراء فى واجهات المحلات، وأبهة معروضات الأرصفة. كل هذه الأشياء تخطر بباله. فهم الكردى لماذا يكره جوهر هذا الحى.

رأى بائع صحف صغيراً فخرج من كآبته واستعاد عالمه:

ـــ ياصغير. هل معك الصحيفة اليونانية؟

ـــ أتقرأ اليونانية ياسيدى؟

– أجل. لماذا لا أقرأ اليونانية؟

ـــ ياالهى. كل شئ ممكن فى هذا البلد.

اشترى الكردى نسخة من جريدة المدينة الوحيدة التى تصدر باليونانية، طواها ودسها فى جيب سترته. انه فى حاجة أن يمارس هذا الغباء. كل هذه الأمور الجادة تثقل عليه كأنها إهانة موجهة لهذا الشعب. أراد أن يهرب من القلق الذى يكتنفه. وقد أنسته المباغتة التى سببها

للبائع الصغير خطته. . يالها من نكته. حان أوان التصرف، لقد وصل الى هدفه. وأصبح الجواهرجى على مسافة أمتار.

تذكر تلك الكلمة التى قرأها فى مكان ما. لم يستطع أن ينساها. "المصادرة". تمثلت الكلمة فى ذاكرته. لن يذهب ليسرق بالطبع. ولكن "ليصادر"، هذه الفكرة اسكنت الطمأنينة فى قلب اللص. رغم أن هذا لم يغير موقفه بسهولة. بالتأكيد فإن الصعوبات تتغير. ولايزال الكردى أميناً لأفكاره الثورية. بدت له محاولته بداية عصر جديد من النضال الطويل الدامى مثل الشعلة الخالدة التى لا تنطفئ الا بحرية الشعب.

أثرت فيه عظمة تجربته حتى كاد أن يبكى، تقدم نحو واجهة المحل. كأنه قد ألف هذه الأمور، ليس سوى أداة للشعب وقد قررالإنتقام، توقف، كأنه الميدوزا فى مياه المحيط يشاهد الجواهرتلمع أسفل عينيه. وقد بدأت تعكس أشعتها الغريبة عليه، رأى الكردى نفسه غارقاً فى حكايات السحرة. وأنه وحده وقع على هذا الكنز الضخم. وهاهى شجاعته تثقل عليه كأنها حجر ثقيل. أيسرق؟ هذا صعب لكن كيف؟ كيف يمكنه أن ينال إحدى هذه الحليات التى يشعر أنها أبعد من نجوم السماء. هذه المرارة التى يحسها مقابل سذاجته تدفع بالدموع الى عينيه، تذكر عشيقته المريضة التى تنتظر حضوره لنجدتها. تأمل كنوز واجهة المحل بعينيه المبللتين. وهو يفكر أنه بثمن إحدى هذه الحليات يمكنه ان ينزع نايلة من مصيرها المجهول. وان ينقذ الفتاة من الدعارة ويؤكد لها حياة شريفة هى

الآن أمر قوى وواقعى. يبحث يائساً عن طريقة. فهذه المجوهرات لاتزال بعيدة.

تبدو منتمية لعالم آخر، أحس بقوتها. ضم قبضته. ورفع ذراعه كى يحطم الواجهة. عبقت رائحة النرجس متسللة الى خيشوميه مؤكدة وجود إمرأة بجانبه. توقفت ذراعه. خانته أعصابه. غمرت وجوده فرحة كبيرة. فهذا العطر كاف تماما أن يخفف من غلوائه دون أن يدير رأسه. ألقى نظرة جانبيه على المرأة الواقفة الى جواره. ساكنة. مهيبة. بدت مشدوهة بالثراء الماثل فى واجهة المحل، بنت بلد انيقة. لفت ملاءتها جيدا على جسدها فأبرزت مفاتنها. رغم أن وجهها ظل مختفياً أسفل البرقع الحريرى الأسود. كشفت عيناها المدغمتان بالكحل عن جمال باهر، مثل هذه المرأة كفيلة أن تثير مشاعر الكردى الذى غاص فى جلده. انشغلت بعقد من الماس بدا لها انه الشئ الوحيد المعروض فى الواجهة.

سحر هذا المخلوق الكردى تماما، أعجزه عن التفكير. ثم تملكه الخوف ان تذهب مما دفعه أن يقول بصوت هامس:

ـــ أعتقد أن هذا العقد قد أعجبك.

تلفعت المرأة كأنها ثعبان. وقالت:

ـــ لكن اين الثرى الذى يقدمه لى؟

لم يجد الكردى شيئاً يرويه، هذه الدعوة الزكية. فالمرأة عاهرة. عاهرة من درجة راقية. لن يقدم لها ــ بالتأكيد ــ العقد الماسى. ولا حبة ذرة مشوى. من تتصوره. انه يتصرف كتاجر دون ان يخشى شيئاً. فليس لديه شئ يفقده من مغامرة. لا تشك هذه الانثى الغبية فيمن تتحدث معه. لايملك لها شيئاً أنه يحب النساء كثيراً ويعرف خصالهن ويجيد التصرف معهن.

الآن آمن أن القدر لم يسقه الى هذا المكان الا ليقابل هذه العاهرة التى تبدو ارستقراطية. سرعان ما بحث عن دعابة كى يستمر الحديث ويعمل على اضحاكها.

لكن المرأة لم تترك له الفرصة. تركت وجهة المحل بسرعة. انطلقت كأن شخصاً أهانها. لعلها فهمت صمت الكردى قبول. هل صدقت حقاً أنه سيشترى لها عقد الماس؟ أى جنون، تبعها الكردى. لم تكن وحدها. فتاة صغيرة ذات ضفائر ربطتها بشريط وردى وترتدى قبقاباً. رأى الكردى أن الفرصة سانحة. فالصغيرة عامل مهم كى يتعرف بسرعة على المرأة. تابعها بخطى سريعة ثم سار فى حذائهما منتظراً اللحظة المناسبة للدخول يمكنه الآن أن يتكلم عن أناقة المرأة التى تهز مؤخرتها. وتقرقع رصيف الشارع بكعب حذائها العالى. تسير كأنها نائمة. تنظر الى الأمام. تختلف عن تلك التى باحت برغبتها. بدا مرتبكاً بصورة لم تحدث له من قبل فى علاقته بالنساء. يعيش الكردى لحظات حاسمة، نسى كل أفكاره عن الشعب الفقير والثورة. وانقلاب القوى الغاشمة. يمكن لكل هذا أن

ينتظر. فهو الآن مشغوف باصطياد هذه الفريسة. ارتجف وهو يتخيلها بين يديه.

ود أن يولى اهتمامه الى الصغيرة التى امتلأت نظراتها بالانتقاء والغيرة. استعد لدخول المغامرة. أدخل يده فى جيبه الملئ باللب وبدأ فى شخشختها. ثم مد يده المفتوحة بكل براءة، نظرت الفتاة الى يد الكردى دون أن تجرؤ على لمس اللب.

ـ خالتى؟

سألت المرأة بلهجة حادة: ماذا؟

بدت كأنها تتجاهل وجود الكردى!

ـ هل يمكن أن آخذ؟

ـ ماذا؟ـ

ـ اللب.

ـ خذيه، كما تشائى.

استدارت الفتاة نحو الكردى، قال:

ـ خذى.

سكب اللب فى جيب الفتاة. بدأت الفتاة فى قزقزتها متعمدة. داعب الكردى شعرها بحنان أبوى، إنهما يمثلان الآن أسرة واحدة تقوم بنزهة. . شعر الكردى بنشوة النصر. وانه ليس غريباً ان يتزوج الآن من المرأة التى بجانبها. لايهم، فهو قادر على كل شئ. لم يقابل ابداً غانية لها نفس الجمال والأناقة. إنها فرصة عمره. لم يصدق أنه حصل عليها. فهو لا يحب الفشل.

ورغم أن المرأة تجاهلته الا أن الكردى يملؤه الأمل. استمر فى مداعبة الفتاة:

ــ ما أسمك؟

ــ اسمى نجفة.

قال ملحاً: إسم جميل هل تحبين اللب؟

ــ أجل وآكله دائماً.

ــ حسناً. فى المرة القادمة سأشترى قرطاساً كبيراً.

هنا توقفت المرأة. واجهت الكردى وقالت بثبات:

ــ أعتقد أن الوقت حان لتتكلم بجدية.

فوجئ الكردى بهذا الهجوم السريع، فتلعثم قائلاً:

ـــ بالطبع، أنا انتظر هذه الفرصة.

عليها أولاً أن نطرح سؤالاً. ثمن سحرها! فهم الكردى أن عليه أن يلعب بجدية. ليس مستعداً أن يدفع لها أو يشترى شيئاً.

سألت المرأة: ماهى نياتك؟

قال الكردى مؤكداً: أحسن نية فى الدنيا، تحت أمرك. عليك أن تأمرى.

ـــ أين ستأخذنى؟

ـــ فى منزلى. لدى شقة تليق بك. أنا واثق أنها ستعجبك. خاصة أثاثها الحديث.

حاول أن يتجنب الأسئلة الجادة. يبدو انها لا تصدقه:

ـــ فى أى حى هذه الشقة؟

ـــ فى المنشية. على مسافة خطوات من هنا.

ـــ أتسمى هذه خطوات، انها بعيدة، آسفة، لا أستطيع أن أذهب.

ـــ بشرفى. أوكد لك انها ليست بعيدة. ثم لا تقلقى. فسوف تقضين الليلة. هناك الشقة كبيرة وستقيم الصغيرة فى الصالة.

نظرت اليه مدققة: أقضى الليل هل أنت ثرى الى حد أن تدفع ثمن الليلة. ياإلهى. ماذا تنتظرين. لم يكلمنى أحد هكذا. هل أبدو صائعاً. أنا موظف كبير فى الحكومة.

بدت المرأة مترددة وأخذت تفكر.

ــ أود أن أصدقك. لنركب عربة حنطور.

بدأ الكردى يحسب النقود التى فى جيبه. انها لا تكفى لعربة حنطور. تنهد بصوت خفيض ملئ بالخجل لكنه لم يسمع أى رد على ندائه. قال:

ــ سنجد وسيلة. لنمش. ألا ترين أن الجو جميل؟

لم تكن المرأة غبية. سرعان مافهمت:

ــ تنزه وحدك. ياموظف الحكومة ياعرة.

وذهبت. تعلقت الصغيرة بملاءتها الحريرية وقد بد عليها الكبريا.

نظر لها الكردى متحسراً. لم يصدق أن حلماً جميلاً انفلت. سمع الضحكات تتعالى حوله. أطلقها بعض المارة الذين تبعوها بدافع التسلية ويرون الآن خيبته، استدار الكردى ناحية هذه الضحكات. نظر اليهم بكبرياء. وعاد مرة أخرى الى تعاليه.

رغم أن بيت الست أمينة قد أُعيد فتحه مرة أخرى منذ أسبوع. الا أن الكثير من الرواد لم يجرؤوا على دخوله مرة أخرى. يجلس القليل من الزبائن فى الصالة كأنهم أتوا لحضور جنازة، أحسوا أنهم يقعون فى فخ. ولم يخدعوا فى هذا.

تم الاتفاق بين السلطة والست أمينة على استعادة أعمالها. تمنى نور الدين أن يعود القاتل. كالعادة الى مكان الجريمة. وأن يكشف الشخص الذى يبحث عنه. ومن هذا المنطلق كلف أحد أفضل أتباعه أن يذهب الى الماخور مدعياً أنه ثرى كبير. يعود فخوراً كل مساء منذ أن فتح المترل مرة أخرى. يتصرف كفلاح قادم من الريف باحثاً عن المتعة فى العاصمة. يعتذر فى اللحظة الأخيرة عن مرافقة إحدى البنات الى حجرقما. آثار هذا السلوك الأقاويل حوله. من ناحية أخرى فقد كشفت أسئلته عن سره. الجميع يعرف الآن أنه مخبر. أدركت الست أمينة السر منذ اللحظة الأولى. لكنها تصنعت الجهل. ماذا عليها أن تفعل؟. الآن تجلس فوق أريكتها كالعادة. تنظر الى المخبر يتحدث مع عقيلة.

بدأت تشكو لأحد الزبائن الذين يجلسون قرابة منها على الأريكة. يحدثها عن حسرة العصر الذى أصبحت فيه عاهرة غير مطلوبة.

ـــ هأنت ترى! يريدون أن يحطمونى. ألن يذهب هذا الرجل أبداً؟

ـــ إهدئى يا إمرأة. سواء كان مخبراً أم لا. فهو على الأقل زبون.

ــ زبون، ليخلصنى المرض من أمثال هذه الزبائن.

ــ اسكتى. يمكنه أن يسمعك.

ــ ليسمعنى. فأنا سيدة البيت.

توقفت عن البكاء. أسندت يدها على وجنتها، وهى التى إعتادت الحديث عن متاعبها، ولم تنشغل بالمخبركثيراً.

نسى جوهر أرنبة تماما. جلس فوق مقعد كبير وهو يراجع الأرقام المدونة داخل مربعات فى كراس مدرسة ذى غلاف أصفر، استعاد وظيفته سعيداً كرجل أدب فى خدمة العاهرات. أما حسابات الماخور فهى شئ بسيط. ولا تتطلب أى تركيز ذهنى. يرفع رأسه من وقت لآخر كى يتشرب بهذا المزيج من النقاء والخصوبة فبدلاً أن يقلقه تواجد المخبر، جعله يشعر بالأمان. فهذا الرجل يبعث على تسليته. يضايقه بهذه الأسئلة السخيفة. ألم يدرك أن الجميع عرفوا حقيقته منذ فترة طويلة؟ شعر جوهر بالمتعة. وهو يرى شرطياً. فى مهمة يحاول حلها دون أن تبدو فيه الغلطة. ومايفعله يتضارب مع عمله.

أحس جوهر أن خطر القبض عليه قد قل، وإنه ليس بنفس الصورة التى تحدث بها يكن، فقد أثر فيه تصريح هذا الأخيرــ وطلبه أن ينفذه بكل ما به من صفاء. ف"يكن" قادر أن يبيع حتى ملابسه. كى يوفر له ثمن سفره وقد يرتكب أى شئ غير قانونى، وأن يحدثه عن كل

الإحتمالات المتعلقة بإنقاذه؟ انه ضعف أمام هذه النداءات المليئة بالمحبة. ثم ألم يفده يكن بحياته؟ هل يمكن أن ترفض خدمة رجل يطلب منك أن يفديك بحياته؟

سيكون هذا إحساس بالنقص. وإهانة للصداقة.

آه لو استطاع الهرب. وسافر الى سوريا. تخيل حقول الحشيش الواسعة وهو يقوم بزراعتها. هذا النبات الرائع بهاتين اليدين اللتين خنقتا العاهرة الصغيرة. لكن هذا الحلم الشرير لم يستمر سوى لحظة.

ــ جوهر أفندى.

يناديه المخبر. وهو يستكمل غزله لعقيلة. استدار ناحية جوهر كى يسدى اليه نصيحة بصوت عالٍ قال "جوهر"؟ كأنه الآن فى بيت ملئ بالجلادين. رفع الكردى المنديل ووضعه فى جيبه وجلس قريباً من جوهر قال له همساً.

ــ لاشئ. كنت أتخفى.

ــ لماذا هذا الغموض؟

ــ إنهم يطاردوننى يا سيدى. يعرفون أننى ثورى.

ــ من؟

ـــ الشرطة. إنها تطاردني. أنا واثق. إسمعنى ياسيدى لقد ركبت الترام هذا المساء كى أذهب الى الحى الأفرنجى.

كان هناك إزدحام شديد. كادت عظامى أن تنكسر لم أستطع أن أحرك أصبعاً. وبينما أقف فى مكانى. رأيت رجلاً يجلس أمامى ينظر الى بريبة. بدا مرعباً. فالرجل أعور. يرقبنى بعينه العوراء. ولك أن تتصور الرعب الذى شعرت به.

ـــ مالذى جعلك تتصور أنه شرطى. ربما ليس أكثر من رجل أعور.

ـــ دعنى أروى لك الباقى. فهى قصة عجيبة. عندما جاء المحصل ليبيع التذاكر. قال وبكل غباء وبساطة "مخبر".

قال جوهر:غريب. أعتقد انك انفجرت ضحكاً.

ـــ كيف أضحك ياسيدى؟ لقد قفزت لتوى من الترام وهى تسير.

سأل جوهر: لكن ماذا كنت تفعل فى الحى الأفرنجى؟

ـــ أخبرتك اننى سأدبر مالاً. ذهبت الى الحى الافرجى كى أسرق محل جواهرجى فى شارع فؤاد.

ـــ وهل نجحت؟

قال بمرارة: لم يكن الأمر سهلاً كما تصورت. أعتقد أنه لايمكن لأحد أن يفعل. فى الواقع فلم يكن يفكر فى واجهة المحل المليئة بالمجوهرات. ولكن فى تجربته الضائعة مع المرأة. كانت تود عربة حنطور. كاد أن يروى الحكاية لجوهر، لكنه تراجع فهذا الأخير يعامله كثورى.

ـــ ولماذا تحتاج الى مال؟

ـــ ليس لى ياسيدى. فأنا أستطيع أن أعيش فقيراً. لكن نايلة مريضة وأريد ان انتشلها من هذا المكان الملعون. ثم هناك أخريات.

ـــ أى أخريات. هل لك أسرة؟

ـــ لا. ليست لى أسرة. أفكر فى هذا الشعب المطحون البائس. ياسيدى لا أفهم كيف تظل ساكناً ازاء الأقذار الذين يفسدون فى هذا الشعب؟ كيف يمكنك التغاضى. عن القهر؟

ـــ أسمعك.

أرضى الزبائن الموجودين فى صالة الانتظار ماسمعته آذانهم: فكل ما يقوله المخبر يهمهم جميعاً.

قال الشرطى:

ـــ عملية قتل البنت أرنبة تذكرنى بحكاية قديمة حدثت فى ماخور أيضاً. لا أعرف هل تذكرها. لقد تذكرت بعض تفاصيلها فجأة.

يكلمه هذا الغبى ثانية عن الجريمة. سعل جوهر وأمسك عصاه وقال بلطفه المعتاد:

ـــ آسف لا أذكر شيئاً.

ـــ إنها حكاية حدثت قبل الحرب. تكلموا عنها كثيراً فى تلك الآونة. تتحدث عن عاهرة قتلت بطعن السكين. وعند تشريحها اكتشف الطبيب الشرعى أنها عذراء. الأكثر غرابة أنها ظلت تمارس مهنتها عشرين عاما. مارأيك؟

أضاف جوهر: غيرمعقول.

ـــ أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير فيها. عاهرة عذراء أليست لديها أية ثقة فى أحد؟!

قال جوهر: حتى العاهرة تخفى مايثير الدهشة.

ـــ تعجبنى فلسفتك. أرى أنك رجل خابر الحياة جيداً.

ضحك الشرطى ضحكة غليظة دافعاً اياها وهو يقبلها فى فمها بطريقة وحشية. خمنت عقيلة انه على وشك أن يفقد أنفاسه: الى اللقاء ياجوهر افندى.

ـــ تفضل.

قالت الست أمينة: أخيراً. قرر، السافل، على الأقل فلن يتسلى فى بيتى دون أن يصرف شئ.

عاد جوهر الى حسابه. لقد أثارته الحكاية ويمكن أن تحدث. هذه البكارة التى تفض. الماثلة فى جثة العاهرة القتيلة. الا تعتبر أغرب جريمة؟ حل جوهر اللغز. هل عليه أن يأخذ هذا العالم الساحر بصورة جادة؟ سوف يثير هذا جنونه. سنوات طويلة من الجنون.

ــ كنت أعرف ياسيدى اننى سأجدك هنا. فلدىّ شئ مهم أريد أن أخبرك به.

ظهر الكردى فى قاعة الانتظار. يكاد الطربوش يلمس أذنه. وقد غطى أسفل وجهه بمنديل يمسكه بقوة كأنه يحبس به دماً.

ــ ماذا بك يابنى؟ هل جرحت؟

رفع جوهر صوته وهو يرد عليه:

ــ لم أنكر وجود الأقذار يابنى.

ــ لكنك تكافئهم، أنت لم تعمل شيئاً لمحاربتهم.

ــ صحتى غير متوائمة. أنا أحاربهم أكثر منك.

ــ بأى طريقة؟

قال جوهر: بعدم التعاون. أرفض كل أنواع التعامل مع هذا التملق المتناهى.

ـــ لكن الشعب لايقر هذا الموقف السلبى، عليهم العمل ليعيشوا. كيف لا يمكنهم الا يتعاونوا؟

ـــ ليصبحوا جميعاً صعاليك. ألست صعلوكاً. عندما نكون بلداً يصبح فيها كل الشعب صعاليك. فسوف ترى ماذا سيغدوا هذا العالم. سوف يسقط فى الوحل. صدقنى. انها المرة الأولى التى يسمع فيها الكردى "جوهر" يتكلم بلغة عنف مماثلة. يعرف أن لديه أفكارا حول انقلاب السلطة البغيضة. لماذا لم يقل شيئاً من قبل؟ قال:

ـــ نحن شعب من الصعاليك. يبدو أن هناك أشياء كثيرة علينا أن نفعلها.

ـــ أجل. أمامنا أشياء كثيرة نفعلها. هناك ناس مثلك يتعاونون.

ـــ أنت مخدوع ياسيدى، لاأعمل شيئاً، فأنا متمرد فى الوزارة.

ظل جوهر صامتاً. انه لايرضى عنه. أية حاجة له فى الدفاع. وأن ينكر وجود الأقذار وهو الذى تخلى عن كل شئ. الراحة، والسعادة. كى لا يشارك هؤلاء الاقذار. ماذا يعتقد الكردى اذن؟ ليكن الوحيد الذى يعرف بؤس الشعب الذى تسيطر عليه عصابة من اللصوص

والداعرين، رغم ان طفلاً يعرف هذا. ابتسم وهو ينظر الى الشاب قال وهو يداعبه.

ــ لتعرف أن هنا مخبراً يمارس الحب مع الصغيرة عقيلة.

قال الكردى: ياالهى، حقاً. علىّ ان أكون حريصاً.

قام فجأة كأن المكان أصبح خطراً بالنسبة له:

ــ آسف على الجرائد ياسيدى سوف أحضرها غداً.

ــ شكراً يابك. يمكن أن أنتظر.

ــ خذ هذا. لقد قرأته.

أعطاه الجريدة اليونانية.

كانت الست أمينة تنظر اليه بريبة. أطلقت تنهيدة وهى تراه يقترب منها:

ــ هل نائلة فى غرفتها؟

ــ دعها تعمل. هل تريد أن تحطمنى؟

ــ لن تتحطمى اليوم ياإمرأة، هاهى.

عادت نائلة من الصالة. دون ان تعير الكردى أهمية. نظرت الى الست أمينة وأعطت لها النقود فوضعتها فى صدرها. قال الكردى:

ــ تعالى لغرفتك، ياعزيزتى. فعندى كلام لك.

قالت نايلة دون ان تنظر اليه: دعنى. أنا هنا لأعمل، وليس لأسمع حكايات.

قالت الست أمينة: إذهبى يافتاة. هذا الولد مجنون. ولا أريد فضائح.

ــ لا. ياخالتى: لن أذهب. لاأعرف هذا الرجل.

جلست على الأريكة قريبة من الست أمينة باحثة عن حماية فى وجودها.

لم يفهم الكردى سبب هذا البرود المفاجئ لماذا تتجنبه؟ أخذ مقعداً وجلس أمام عشيقته وقال:

ــ يجب الا تعملى. قلت لك استريحى.

ــ هل ستؤكلنى؟

بدا الأمر تحدياً. فهل يتعلق الأمر بالأكل. قال بصوت مرتبك:

ــ الشرطة تطاردني وأنت تتكلمين عن الاكل.

قالت الست أمينة: اسكت. لا تتكلم عن الشيطان. فهو ليس بعيداً.

عاد المخبر. وهو يتأبط ذراع عقيلة مزمجراً كأنه الرجل الوحيد القوى فى الحى كله .

همس بكلمات حب فى أذن الفتاة وابتسم للحاضرين كأنه يود ان يعتذر عن المتعة التى نالها منذ قليل.

استدار الكردى بهدؤ نحوه وهو يتودد:

ــ اذا كان هناك رجل شرطة فى هذا البيت، فأريد أن أعرفه.

هتف الذى يدعى انه فلاح قادم من الأرياف، وهو يمثل دور الشريف الذى يخاف من وجود الشرطة:

ــ شرطة هنا، ياله من نهار أغبر.

قال الكردى وهو يشير له بأصبعه: يبدو انه أنت. شجب الرجل:

– أنت غلطان يا أفندى. فلست سوى تاجر شريف.

تدخلت الست أمينة: لاتهن زبائنى. هذا رجل نبيل وأنا أعرفه.

قال الكردى وقد تسلطت عليه صرعة غريبة: أنت التى قلت ان هناك رجل شرطة فى البيت.

صرخت الست أمينة: أنا؟ أيها الجاحد. وأنا الذى أعاملك كابنى فى هذا البيت.

قال الشرطى: اهدءوا. أيها الناس الطيبون. هناك سوء تفاهم بسيط.

قال الكردى: لافائدة. أنا مستعد أن أتكلم.

– تتكلم عن ماذا يا أفندى.

– اعترف أننى قاتل الفتاة أرنبة.

فتح الشرطى عينيه وقد اكتسى وجهه بتعبير غريب. تجمدت نايلة لحظة. ثم انفجرت باكية. تأمل جوهر المشهد من مكانه وهو يبتسم. بالتأكيد لن يتغير الكردى أبدا. لقد وضع نفسه فى موقف قذر كى يثير دهشة هذا الجمع المسكين.

– 10 –

وقف العملاق ذو الكتفين العريضين فى دكانه الخشبى. كأنه مومياء فى تابوتها. حانوت ضيق. يتسع نصف متر بعمق ثلاثين سنتيمترا. مزخوم بالزجاجات المليئة بالعطور وعلب المراهم والقنينات المليئة بالسوائل ضد الضعف الجنسى والعقم. تفوح منها روائح كثيفة. تجعل الجو غير محتمل حتى آخر الحارة. وربما أبعد.

وبحركة عنيفة. فك الرجل غطاء القنينة، فاحت رائحتها للزبونة الواقفة على عتبة الدكان، قال:

– نقطة واحدة من هذا العطر يميت الرجال من أجلك.

ردت المرأة ضاحكة: لا أريد أن أقتل أحدا. ولكن ان اعجب زوجى.

قال الرجل: اذن لن ابيعك اياها. رحمة به. لأنه سيغدو مجنونا.

– يا نهار أغبر ! لماذا تقول هذه الغباءات؟ سوف أشتريها له.

– حسنا. بعشرة قروش لأجل خاطرك.

فتشت فى ثنايا ملاءهّا. اخرجت منديلها. فكته وعدت النقود. فسلمها التاجر القنينة قال:

– لن يستطيع زوجك أن يقاومك. مستحيل أن يعيش بعيدا عن هذا العطر.

– اذا جاءك فلا تبع له منها.

– لأجل خاطرك. لن ابيعه منها.

ذهبت المرأة حاملة القنينة. استدار الرجل ناحية يكن وقال:

– حسنا. السعر يناسبنى. سوف آخذ البضاعة.

– سأحضرها لك فى أقرب وقت. لا أعرف متى. يجب أن نسلمها قريبا.

– اتمنى أن تكون بضاعة جيدة.

قال يكن: أحسن حال. أنت تعرف. سلام عليكم.

وهو يترك حانوت العطور. اتجه يكن ناحية قهوة المرايا. أصابه بعض القلق. فقد بدا الرجل متخوفا. ليس من السهل اغراؤه. فالأمر معروف بين تجار المخدرات. وقد جرب يكن مرات عديدة ويجب أن يقر أن هذا احتيال. فالأمر يتعلق بكمية من الهروين. حين تأتى لحظة تسليم

البضاعة فان اللفافة تحتوى على سلفات صودا مشتراة من صيدلية. يجب أن تتم الصفقة بأسرع ما يمكن. وسيمنع هذا المشترى من فحص البضاعة. الا انه عندما يكتشف اللعبة يكون الوقت قد تأخر، وليس أمامه سوى ان يلعن اللص. دون أن يجرؤ على الشكوى لأحد.

لم يفعل يكن هذا منذ أمد طويل. ليس لأنه واع، لكن لأن شهرته السيئة جعلته مشبوها بين تجار المدينة، أصبح من الصعب عليه أن يجد ضحية جديدة. أما هذا الرجل الذى عثر عليه أخيرا فهو تاجر لم يقابل مثيلا له وسيعقد معه أحسن الصفقات. المخاطرة كبيرة. لأن الرجل مرشد شرطة. يمكن ان ينصب له فخا. ولكن يكن ترك نفسه تنساب فى هذه المخاطرة. فهو لايعرف وسيلة أخرى لجلب النقود التى يمكن ان يسافر بها جوهر الى سوريا، والهروب من مطاردة الشرطة.

فى مقهى المرايا. وجد جوهر جالسا أمام الكردى. لايتكلمان. بدا الكردى أكثر قتامة عن أى وقت آخر. جلس جوهر يلف لفافته بالحشيش وقد هبطت عليه السكينة. تاهت عيناه فى حشد الرواد الذين يملأون رصيف الشرفة. من وقت لآخر، يمسك الزجاجة الموضوعة أمامه ويحتسى من الشاى الساخن .. جلس يكن معهما دون أن ينبس ببنت شفة، فهو لايرغب أن يتكلم. يفكر فيما فعله منذ قليل، سوف يحصل قريبا على المال الذى يمكن جوهر من سفره. فانقاذ جوهر من هذه المحنة يعد بالنسبة له واجبا مقدسا. وطيلة هذه الأيام، لم يفكر سوى فى الطريقة التى يساعده بها. اصابته الدهشة حول تورط جوهر فى مثل هذه الجريمة.

فهذا الغموض لا يزال يلبسه. كيف وصل جوهر الى هذا الحد؟ وأى عبث دفعه أن يقترف أمرا لم يتعمده؟ فجوهر هو أقل البشر ميلا لممارسة العنف كيف يتخيل أن يهاجم عاهرة لا حول لها ةلا قوة. مخلوق بائس مثل الآخرين. أراد يكن أن يسأل جوهر عن تفاصيل الحدث الهذيانى الذى دار بينه وبين ضحيته، لكن نوعا من العفة. والكتمان يتملكانه، أى حاجة للمعرفة. يجب أن تبدو الصداقة الحقيقية فى أحسن صورة، دون أن تكون هناك تفسيرات.

انطلق صوت الراديو فجأة كأنه العاصفة. تعالت الموسيقى بصورة لا تحتمل. هزت الريح جوهر. بدا كأنه لاحظ وجود يكن، فانطلقت ابتسامة باهتة من وجهه. قال:

– يبدو عليك التعب. ماذا حدث؟ هل هناك متاعب؟

رد يكن: لاشئ. أنا متعب ليس الا. لم انم فى سرير منذ أيام.

– هل تركت فندقك؟

– أجل سيدى. فهو خطير، لقد عرفت الشرطة عنوانى. وليست معى نقود. ولايوجد فندق يود أن يقبلنى بالأجل.

– هل يمكن أن أفعل شيئا؟ حجرتى تحت أمرك.

– أشكرك يا سيدى! سوف تكون معى نقود هذا المساء. وآنذاك سيكون لى سرير ملكى.

– هل تعتقد انهم لن يجدوك؟

– أنا فى حاجة أن يتركوننى فى حالى أياما، أؤدى فيها ما يهمنى من أعمالى، سوف يرتب هذا الأمر. فكل ما يمكنهم هو مضايقتى. لكنهم لا يمتلكون شيئا ضدى.

قال جوهر: لماذا لا تترك الأمر يأخذ مجراه. ماذا تخشى؟

– أخشى أن افتقدك يا سيدى. آسف لهذه الانانية. اعرف انك تسخر مما يمكن ان يحدث لك. فكر فى أننى لا احتمل فقدانك.

– سوف تفتقدنى اذا رحلت الى سوريا.

– يكفينى أن أعرف أنك على قيد الحياة. حتى لو كنت بعيدا.

كيف يخبره أنه يخشى أقسى عقوبة بالنسبة له: الاعدام. تعيش روح جوهر فى عصور أخرى. تبقى ذاكرته قوية كالحجر الصوان، لكن هل هذه هى السعادة؟ أية ذكرى يمكن أن تسيل الكلام الحلو؟ هل تحتوى الكنوز البشرية على مشاعر حنونة؟ لا. ف"يكن" فى حاجة الى جوهر حيا حتى وان أبعدته المسافات. فجوهر يكفيه ان يكون حيا. ووجوده فى أى مكان سبب لسعادته.

هز الكردى رأسه، وبدا كأنه غرق فى خيالات واسعة. نظر الى رفيقيه كأنه يلمحهما فقط. وقد برقت عيناه. سأل بحدة:

– عم تتكلمان. هل سترحل فعلا الى سوريا يا سيدي؟ اذن ستتركنا وحدنا، استحلفك أن تأخذني معك. أود أن أرحل معك. لنرحل حالا. فلدى عربتى. والجياد مستعدة. ماذا تنتظر يا سيدى؟

قال يكن: ماذا هناك؟ بشرفى أنت تهرق.

قال جوهر: أعتقد أنه على غير وفاق مع عشيقته. لقد حدث هذا توا. لا تقلق.

قال يكن: سوف أهدئه، عزيزى الكردى، اسمعنى. لقد رأيت وأنا قادم جامعة أعقاب سجائر بدت حسناء. أعتقد أنها ليست بعيدة.

نظر جوهر الى الكردى وبدأ فى محادثته بصوت خفيض. فجأة ارتسمت الدهشة على وجهه. فقد رأى شخصا يعرفه فى الحشد الغفير. قال:

– انتبهوا. ها هو الضابط المكلف بالجريمة، قادم نحونا كونوا حذرين، ولا تقولوا شيئا.

قال الكردى: سأقول ما يعجبنى. أنا لا أخشى أحدا.

بدا جوهر كأنه لا يفهم شيئا. أمسك الكوب بهدوء واحتسى بعض الشاى، استند الكردى على المقعد وقد شعر بالكبرياء. كأنه يستعد لمعركة فاصلة.

اقترب نور الدين من مائدتهما. بدا أنه لم يراهما. قال يكن مبتسما بسخرية: سلام يا حضرة الضابط، الا تشرفنا قليلا.

دعك نور الدين عينيه، بدا جامد القسمات. بالتأكيد هو فى حاجة الى هذا اللقاء. فهو ليس وحده، يصحبه سمير، بدا مترددا لحظة، ثم ابتسم بفتور وقال:

– مفاجأة سعيدة. سأكون ممتنا أن أتعرف على أصدقائك. لكن يبدو انى تشرفت بالتعرف على هذا الشاب. أظننا تقابلنا من قبل.

رد الكردى وقد بدا عليه التعالى: فعلا. وأنا سعيد انك تذكرنى يا حضرة الضابط.

– كيف يمكن أن أنساك. لا أنسى أبدا رجلا ذكيا مثلك، فحديثنا فى ذلك اليوم ترك انطباعا طيبا عنك. فكرت كثيرا فى هذا اللقاء. دعنى أقدم لك صديقى. طالب فى كلية الحقوق. له مستقبل مرموق.

هز سمير رأسه. لكنه لم يمد يده للمصافحة. يبدو كأنه يجاهد لكبت أعصابه. انه خجول. لا يشك أن كل هؤلاء الناس ليسوا على شاكلة نور الدين، حاول أن يذهب وهو يبدى ازدراءه للموقف.

قال يكن: وهذا جوهر أفندى، كيف لم تتعرف على جوهر أفندى، هذه فجوة كبيرة فى حياتك.

قال نور الدين محييا جوهر: أنا سعيد بسد هذه القجوة.

سأل يكن: ألا تجلس؟

يبدو سعيدا لهذا اللقاء، بدأ يلف حول المائدة مقدما المقاعد.

جلس نور الدين، تردد سمير لحظة، ثم جلس بدوره وهو يرمق الضابط بازدراء، كم سيكون سعيدا حين يقتله.

سأل نور الدين: هل تتناول شيئا؟

ودون أن ينتظر الرد نادى النادل وطلب شايا لكل الجالسين محاولا أن يبدى كرمه. قال يكن:

– هذا شرف كبير فعلا يا سعادة البك. أنت تخجلنا بكرمك.

قال نور الدين: عفوا. لم أفعل سوى الواجب.

ثم غير لهجته فجأة وقال:

– علمت انك غيرت الفندق. هل هذا صحيح؟

رد يكن: فعلا. وجدت هذا أفضل. سعادتك تعرف أن الفندق خال من دورات المياة. ومن الصعب أن أقيم فيه فترة طويلة. ولعلك تقدر ذلك.

– هل يمكننى أن أعرف أين تقيم الآن؟

– طبعا. فليس لدىّ ما أخفيه. أقيم الآن فى "سميراميس" فندق درجة أولى. مكان رائع. يقال ان الحياة تبدأ حين تدخله. آسف، فكما تعرف سعادتك، فأنا مصنوع للأماكن الفخمة.

قال نور الدين مبتسما: أعتقد أنك مجنون دائما. لا يهم سوف أسمعك فيما بعد.

– هذا يسعدنى يا سعادة البك.

كان يكن هو الشخص الوحيد، بين الجالسين، الذى قدر كم أن الموقف حساسًا. وأن الضابط والقاتل يجلسان على نفس المائدة. يدعوه الى شاى. ويتصرف بتلقائية. هذا أمر طبيعى. تناسى وجود جوهر الذى لم يكف عن الدعابة والمزاح، لم يستطع أن يقاوم رغبته فى استفزاز نور الدين.

– سيدى الضابط. هل القضية فى تطور؟

رد نور الدين: لست آسفا. فنهايتها وشيكة. لا تنسى أن الصبر هو الفضيلة المطلوبة فى مهنتنا. على فكرة.. هل فكرت فيما سألتك عنه فى ذلك اليوم؟ هناك أمور تتعلق بك، أعتقد انى اقترفت ذنبا ضدك.

قال يكن: فكرت. أحب أن أساعدك، صدقنى، هذه القضية موضع اهتمامى.

– خسارة. لكن ليس هذا مكانا للكلام فى هذه الأمور سوف أتحدث معك مرة أخرى، فلدينا الكثير لنقوله. سوف أخرج هذا المساء للنزهة مع صديقى. علينا أن نزيل الملل من وقت لآخر. أليس كذلك؟ نحن هنا أصدقاء. لنتمتع. أما العمل ففيما بعد.

قال الكردى وهو يخرج من كآبته: انتبه ياحضرة الضابط.

قال نور الدين: بالطبع. أتساءل فيما قليه. ألم تقل كل شئ. سمعت قصة غريبة يبدو انك تريد أن تورط نفسك فى حكاية قتل أرنبة. أليس كذلك؟

قال الكردى: أنا لم أخدعك. ولا أنكر شيئا. ماذا تنتظر كى تقبض علىّ؟

قال يكن: أنا لاأعرف شيئا عن هذه القصة يا عزيزى الكردى. أهنئك.

رد نور الدين. لن أقبض عليك. لأننى أعرف أنك لست القاتل. لماذا تود أن نقبض عليك؟ لأدهش من شاب مثلك. مثقف. ويتكلم لغة أجنبية. ويتصرف بهذه الطريقة. لا أستطيع أن أفهم دافعك. هل يمكن أن تفسر سبب ذلك، جوهر أفندى أعتقد انك كنت موجود أثناء هذا المشهد؟

ران صمت، تركزت كل الأنظار على جوهر، خاصة سمير الذى تطلع اليه بتركيز، وهو يشعر انه سيسمع شيئا مهمًا..

لم يتكلم جوهر. دامت لحظة لم يشعر فيها سوى بكرة المخدرات فى فمه، كادت أن تذوب. ابتلع بقاياها وهو يحاول أن يتلذذ بآخر نقطة من مذاقها. وتتلون الأشياء من حوله بألوان جميلة. وهو لا يستطيع أن يحدد أية تفاصيل أمامه. تتحول الضحكات والأصوات الى همس بالغ السرية. كأنها تنهدات امرأة فى لحظة الذروة. تركزت عيناه على نور الدين. بوغت بهذا الاحساس الفريد الذى يشعره المرء أمام جلاده. اكتشف ان هذا الجلاد ذا المظهر العنيف مرتبك وقلق ويشعر بالخطر حوله، يالها من نظرة ألم، أى عذاب معنوى يتمثل فى وجهه الصارم. نبهته غريزته ان لا شئ يخشاه من هذا الرجل. بل أن هذا الرجل فى أمس الحاجة الى مساعدته والى الشفقة عليه.

قال يكن: ياحضرة الضابط. انتظر. لنسمع رأيك.

علق جوهر: حسنا. أعتقد انى يمكن أن أفسر سلوك صديقى الشاب. الكردى رجل نبيل الروح. يكره الظلم ويهتم بمحاربته. ويريد اصلاح العالم. لكنه لا يعرف كيف يفعل ذلك. وأعتقد أن هذه الجريمة أثارته. يود أن يحمل نفسه المسئولية وأن يكون شهيدها. أنا سعيد ياحضرة الضابط لأنك لم تأخذ تصريحاته مأخذ الجد. ويجب أن تغفر له هذا السلوك فقد تصرف بنخوة شرف.

صاح الكردى: سيدى. هذا فوق الاحتمال. دعنى أشرح لك. أعرف انى لست القاتل. ولكن سواء كان أنا أم غيرى. فماذا يهم؟ المهم بالنسبة لك ياحضرة الضابط أن تقبض على أحد، أليس كذلك؟ حسنا، أقدم نفسى. ويجب أن تقر هذا.

قال نور الدين: عبثا. عبثا. ليس هذا هو المهم. أريد أن أقبض على القاتل ولا أحد غيره.

سأل يكن: لماذا؟ لماذا تقبض فقط على القاتل؟ أنت تخيب ظنى. تتركته فريسة لاعتبارات واهية.

كرر نور الدين: لماذا؟ لماذا أقبض على انسان برئ؟

قال جوهر: من الصعب الخيار بين المذنب والبرئ.

قال نور الدين: لكننى لا اختار. اتخذ موقفا بعد اجراءات عديدة. لن أقبض على رجل الا عندما أقتنع بما اقترفه. كلكم مثقفون ويبدو عليكم انه ليس لديكم فكرة عن القانون.

قال يكن: ليس القانون ما يهمنا. ولكن الانسان. مايهمنى أن أعرف. لماذا يقضى رجل مثلك يضيع وقته فى مثل هذه الأشياء. يدلا من أن يتمتع بحياته القصيرة. أجد أن هذا الانشغال مثير للشفقة.

قال نور الدين: لا أدافع سوى عن المجتمع ضد الجريمة، أى نو ع من الناس أنتم. تعيشون بعيدا عن الواقع.

قال جوهر: الواقع الذى يتكلم عنه واقع مزعوم. حلم اخترعه البشر.

قال نور الدين: ليس هناك واقعان.

هتف جوهر: أجل هناك الواقع المبنى على الغش. وفيه تحس انك مثل سمكة معلقة فى سنارة.

– وما هو الآخر؟

– الآخر واقع متفائل يعكس بساطة الحياة، لأن الحياة سهلة. ياحضرة الضابط. ماذا يلزم الانسان كى يعيش؟ قليل من الخبز يكفى.

قال يكن: وأيضا قليل من الحشيش.

– ليكن، وقليل من الحشيش.

هتف نور الدين. ولكن هذا ضد التقدم.

قال جوهر: يجب أن نختار. التقدم أم السلام. اخترنا السلام.

قال يكن: اذن فلنترك التقدم ياسعادة البك. أنت تمزح. ونتمنى لك وقتا سعيدا.

فتح نور الدين فمه ليتكلم، لم تخرج من حنجرته المحشرجة أية كلمة. انه مشدوه بشخصية جوهر. يتكلم هذا الرجل عن السلام كأنه شئ سهل يمكن اختياره. السلام! يجهل نور الدين كل دخائل جوهر. لكن هذا الرجل ليس ما يبدو منه فقط. فهو ليس مفكرا فاشلا آمن به الفقر. يشع من وجهه المليء بالحيوية، ولغته الجذابة ونبل سلوكه ذكاء حاد. كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يهوى الى أسفل درجات السلم الاجتماعى؟ هل اكتشف فجأة السلام فى هذا العدم المتناهى؟

حسب تقارير الشرطة. فان نور الدين يعرف أن جوهر كان يشغل وظيفة فى ماخور الست أمينة. لم يعلق لهذا أية أهمية مؤمنا أن الأمر يتعلق بخادم عجوز أحسنت اليه بأن منحته عدة وظائف. تساءل عما اذا كان هو القاتل. سأل جوهر وهو يحدق فيه باستغراب:

– ما هو السلام؟

رد جوهر: هو الشئ الذى نبحث عنه.

– ياالهى. من أدرك اننى أبحث، أنا أبحث عن قاتل.

قال يكن: انت تثير دهشتى يا سعادة البك. لماذا لم تأخذ باعتراف الكردى، أتمنى أن أعرف مبرراتك.

قال نور الدين: المبررات بالغة التفاهة. لأننى عقدت لقاء مع هذا الشاب. ولا يمكن أن يكون الكردى أفندى قاتلا. يثرثر كثيرا. واقع دائما تحت سطوة أفكاره. ينقصه التملق، رجل مثالى. أما الرجل الذى ارتكب الجريمة فله صفات أخرى تختلف، كتوم، ملىء بالغموض.

هتف يكن: يا الهى. أنت تتكلم فى علم النفس. لم أكن أعتقد هذا فيك. ياحضرة الضابط. أنت لا تكف عن اثارة دهشتى.

– أعترف انها أول مهمة أتولاها من هذا النوع. غياب الدافع الملموس. مما يضطرنى أن أقول انها جريمة بلا دافع.

قال يكن: الجريمة بلا دافع تتطلب فكرا راقيا. معذرة، كنت أتصورك ذا روح شرسة دنيئة.

قال جوهر: أنت على خطأ يا عزيزى يكن حين تتصور أن حضرة الضابط ذو روح شرسة. فقد حلل الدافع جيدا. لكن عندى رأىّ.

سأل نور الدين: ماذا؟

– هل تقع الجريمة بلا دافع تحت طائلة القانون؟ أليس لها نفس مدلول الزلزال مثلا.

الزلزال؟!

قال نور الدين: الزلزال لا سبب له. انه قدر مشئوم.

رد جوهر: لكن الانسان أكثر شؤما لأقرانه. أصبح أشد من الزلزال. على كل حال. هناك الكثير من الدوافع. ألا تصدق حضرة الضابط. لقد أظهر الانسان من شروره أكثر ما تمتلك الطبيعة؟

قال نور الدين مداعبا: لا أستطيع أن أقبض على الزلزال.

قال يكن: والقنبلة. هل يمكن سعادتك أن تقبض على القنبلة؟

قال نور الدين ساخرا: ولا هذه المجنونة. يا يكن أفندى لا أستطيع أن أقبض على القنبلة.

قال يكن: اذن. هم يدفعون لك حتى لا تفعل شيئا. ما يهمنى. هو انك تقبض على قاتل مسكين. وأنت غير قادر على القبض على القنبلة.

ابتعد سمير عن دائرة الحوار. ولم يقف أثناء هذا موقفه البارد المليء بالاشمئزاز، يبدو نافرا من كل هذا الجمع، جميعا غرباء بالنسبة له، لم يقابل مثلهم أبدا، أحس ان هؤلاء الناس يتكلمون عن غباءات. وانهم يتعمدون استفزاز نور الدين ويتسلون به، نظر سمير الى الكردى، دون أن يعرف

لماذا. فهم ان هذا يعرف. يعامل نور الدين بكراهية. هل لأن ضابط الشرطة أفضل منه؟ أدار سمير رأسه. وقد أحس بالغضب يتملكه.

قام، سأله نور الدين:

– الى أين؟

– معذرة ياسعادة البك! على أن أعود للبيت، أبى لا يسمح لى بالسهر حتى وقت متأخر.

قال نور الدين: تحياتى للأسرة.

قال سمير بلهجة لطيفة لكنها لاذعة:

– لن يفوتنى هذا.

أدار ظهره وعبر الشرفة وهو يرفع رأسه عاليا. قال نور الدين:

– أرجو أن تعذروا صديقى. فهو شخص خجول.

قال يكن: انه رائع. رائع حقا. لقد حان الوقت أيضا كى أذهب، آسف أن يفوتنى حديث مفيد كهذا. الحقيقة أننى أكاد أن أموت حاجة للنوم.

قال جوهر وهو يقوم: سعيد أن أتعرف عليك ياحضرة الضابط. الى لقاء آخر.

سأل نور الدين: هل يمكن أن اصحبك لحظة؟

رد جوهر: بالطبع. فأنا فى خدمتك.

اختفى يكن. وظل الكردى وحده وهو لا يعير رحيل الآخرين اهتماما.

كتم يكن صرخة وهو يقف. فقد تملكه شك رهيب. وأيقظه من فتور. أحس فجأة أن جسده يحترق بكامله. لكنه ليس باردا. فالبرد لا يمكن ان يصل الى المنطقة التى تقبع فيها معاناته. انتظر لحظة. ثم غمس يده فى جيبه وأخرج قطعة من النقود أخذ يقلبها بين أصابعه. يتفحصها طويلا متعجبا على ديمومة الأشياء. لكن هذا الأمر لم يبد له كافيا. فالاحاسيس المشئومة التى انتابته منعته من التنفس. عليه أن يتأكد أن القطعة غير مزيفة. كيف يتأكد فى الظلام. عليه أن يقترب من النور.

هناك فانوس فى أول الشارع، اتجه ناحية الضوء، انتابته الشكوك، فلتكن النقود مزيفة، ولينم الليل. لكنه يتمنى أن ينام فى غرفة فندق، بعيدا عن البرد وتعب المشى بلا هدف. انه يعتمد على هذه القطعة التى لا يملك غيرها.

يغلبه النوم. حلم بالنوم فى مكان مريح. يشعر بلذة الأبدية. لايزال المصباح على مسافة أمتار. لايمكن له ان يتماسك طويلا، توقف لينظر الى قطعة النقود. فتح يده المرتجفة وامسكها بارتفاع عينيه واطلق صرخة مفاجئة. فقد سقطت قطعة النقود فوق الأرض. ولم يشعر بها تتزلق من يده المرتجفة. ارتمى يكن أرضا وهو يتحسس بيده. لم ير شيئا. ولم يلمسه شيئا. أحس بالدوار، بدأت رأسه تتوه. لايزال المصباح بعيدا. الضوء الذى يشعر يسقط فى البؤرة التى يبحث فيها. أحس بالغضب يتملكه. لعن نفسه لأنه أخرج النقود من جيبه. أخذ يلعن الحكومة لانها صكت النقود فئة القرشين صغيرة. الا يمكن للحكومة أن تصك قطعة أكبر. "حكومة الداعرين". فبماذا كانت تفكر وهى تصنع هذه القطع فى التوفير، هذا شئ مثير للخجل والعبث.

تخيل يكن وسط غضبه أنه يحول المصباح الى مكان النقود وأنه قادر على شئ من أجل العثور على نقوده. فكر فى الثقاب وقفز فرحا. انتهت كل معاناته أثر هذه الحكاية. فعلبة الثقاب موجودة فى جيب بنطاله. أخرجها وأشعل عودا. انحنى وأخذ يدور بالثقاب حول نفسه. لم يعثر على شئ. فالنقود لاتزال ضائعة. أشعل عودا آخر وسار بضع خطوات حتى كادت أنفه أن تلمس الأرض. فجأة أحس بقلبه يطير من الفرح. فقد رأى قطعة النقود أمامه تلمع كأنها قطعة من الماس. التقطها ودسها فى جيبه بسرعة. ثم ظل ساكنا لا يقوى على الحراك. أحس فجأة بالثقاب الذى نساه يحرق أصبعيه. صرخ: "حكومة الداعرين".

سمع صوت خطوات قريبة. ثم توقف شخص خلفه. كتم يكن أنفاسه. استدار ووجد نفسه أمام شرطى. ياله من ظهور سيىء. لا يتحرك من التعب والبرد والجوع، وأمامه الان الممثل الرسمى لكل هذه الأشياء، ابتسم بغباء، قال الشرطى:

– اذن. فأنت تسب الحكومة.

تمتم يكن. أنا لم أسب أحدا ياحضرة.

– سمعتك تقول "حكومة الداعرين". لست أصما. هيا. تكلم.

قال يكن: أبدا ياحضرة. لقد أحرق الثقاب أصبعى.

قال الشرطى: سنرى الثقاب فيما بعد. أما الآن. فقل لى هل حكومتنا حكومة داعرة. نعم أم لا؟

– أبدا ياحضرة، بشرفى. لا اقصد حكومتنا.

– أية حكومة تقصد؟

قال يكن: أقصد حكومة أجنبية.

قال الشرطى شاردا: حكومة أجنبية. أنت كاذب: بل تعنى حكومتنا. وأنا متأكد من ذلك.

– بشرفى. هناك سوء تفاهم. الأمر يخص حكومة أجنبية. ويمكن أن أقول لك أى بلد.

سكت الشرطى، بدا كأنه يفكر، وانه يرى الأمور تسير بشكل سيئ.

– قل لى اسم البلد بسرعة.

لم يفكر يكن فى اختيار البلد. فالعالم واسع. والبلاد تتلاطم فى وجهه. وعليه أن يختار. خرج من بين شفتيه وقال:

– سوريا.

كرر الشرطى: سوريا. انها بعيدة. هل أنت واثق مما تقول؟

– بالطبع. أقسم لك بشرفى.

قال الشرطى: حسنا. لكننى لن أتركك. ماذا تفعل هنا وأنت تشعل الثقاب؟ هل تعرف اننى كنت ارقبك منذ فترة؟

قال يكن: سأشرح لك. سقطت منى قطعة نقود وبحثت عنها فأشعلت، كما ترى فالأمر سهل.

– قطعة نقود. ماذا تقصد؟

بدا الأمر معقدا. ارتعد يكن من البرد. ماذا يدور من حوله كل حياته مطاردات. والآن. وفى أول الليل. يجد نفسه أمام متاعب جديدة. انه يكره الشرطة وخاصة حراس الليل. ذوى الوجوه القبيحة ورغم ذلك ففى هذه اللحظة تمنى أن يكون بعيدا عن هذا الشرطى الضيق الأفق الغبى. كفاه ما رأى. ولديه ما يكفيه من الجنون. ليس أمامه سوى الليل. عليه أن ينام بعيدا عن البرد. وان يتخلص من التعب الذى يجره وراءه، أجل، ان ينام.

تكلم بصوت خفيض. وقد أكسب كلامه أدبا.

– صدقنى ياحضرة، اخبرتك بالحقيقة، وهاهى قطعة النقود.

أخرجها يكن من جيبه وأراها للشرطى.

– وجدتها عندما وصلت.

نظر الشرطى الى النقود وتثاءب. لا يود أن يذهب به الى قسم الشرطة، ثم ان الشخص يبدو له أقل أهمية، قال:

– حسنا. يمكنك أن تذهب. وكفاك أن تتصرف كالمشبوهين، فأنا أراقبك.

قال يكن: شكرا ياحضرة. أنت رجل طيب. ولماح. وستصبح وزيرا يوما.

تنهد يكن بعمق. ثم أسرع. وصل أسفل المصباح. فتوقف وفتح يديه وتفحص قطعة النقود، تبدو عادية. قطعة أصلية. لا يجرؤ أن يرفضها أحد. استكمل طريقه وهو يشعر ان الشرطى يتبعه فى الظلام.

توقف أمام أول فندق عليه لوحة "فندق الشمس"، دخل. ينام الموظف فوق أريكة قذرة. رفع رأسه ونظر الى يكن كأنه يعامله كلص.

– ماذا تريد؟

رد يكن: غرفة.

قال الرجل: غرفة، حسن، يمكننى أن أعطيك غرفة. قرشان. هل معك نقود؟

استعد يكن لطلبه. أمسك النقود فى يده ومدها للرجل الذى أمسكها ونظر اليها فى ضوء مصباح الغاز الذى يضئ الممر، قال بنبرة مغايرة:

– اتبعنى يا بك.

صعدا سلم بلا درابزين بليت درجاته. أحس أنه فخ. توقف الرجل فى الدور الثانى، أمام باب دفعه وهو يقول:

– أنها أجمل غرفة فى الفندق. لا أقدمها سوى لكبار الزبائن.

قال يكن: شكرا.

كانت الغرفة مفروشة. بسرير حديدى عليه غطاء وردى. ومقعد ومائدة صغيرة مصنوعة من الخشب الأسود. ولكن يكن لم ينظر الى الغطاء.

– قل لى. الا يوجد عندكم بق؟

رد الرجل مبغوتا: بق. أبدا. نحن فندق درجة أولى.

– شكرا.

قال الرجل. اتركك لتنام جيدا.

خلع يكن ملابسه فى الظلام وتمدد فوق السرير. نام بسرعة. وغرق فى احلامه. حلم أنه شرطى بالغ القوة ويحمل الكثير من الاسلحة، ولا يخشى أحدا، وانه سيد الشارع الذى لا يهاب. يبذر الرعب فى طريقه. ويهرب كل الغلابة عندما يقترب ثم رأى نفسه قزما قصيرا مليئا بالقبح والدمامة. أحس بمطرقة تهوى فوقه وألم ينخر فى جسده.

استيقظ يكن وأطلق صرخة حادة. عم الغرفة برد قارص. حاول أن يجذب الغطاء، لكنه بوغت أن الغطاء غير موجود. قطعت الدهشة أنفاسه. لم يفهم. أين الغطاء. نادى على موظف الفندق بأعلى صوته.

مر وقت طويل قبل ان يسمع ردا. جلس على السرير وقد عقد يديه على صدره ليحمى نفسه من البرد. نادى من جديد، فتح الباب. دخل الرجل ممسكا بيده مصباح الغاز. تقدم بحذر وهو يضع أصبعه على فمه. صاح يكن:

– أين الغطاء. ما الحكاية؟

همس الرجل. لاشئ. اعطيته لزبون. وما ان يغط فى النوم حتى احضره لك. بشرفى. اقسم لك. فلا تثر فضيحة.

تأكد يكن مما حدث أثناء نومه. فقد جاء الرجل وجذب الغطاء كى يعطيه لزبون آخر. اندهش من هذا الاسلوب الغريب. سأله:

– أليس لديكم سوى غطاء واحد فى الفندق؟

رد الرجل بصوت خفيض: ابدا. نحن فندق درجة أولى. ولدينا ثلاثة أغطية. وعندنا زبائن كثيرون.

قال يكن: فهمت. ماذا سنفعل. أنا بردان وأريد أن أنام. فهات الغطاء.

قال الرجل: بضع لحظات. بشرفى سوف أحضره لك توا. والزبون الذى أعطيته له بالغ التعب، كان ينام واقفا. لعله نام الآن. لاتتحرك. سوف أرى. فلا تصرخ.

خرج الرجل على أطراف أصابعه حاملا المصباح. جلس يكن فى الظلام يرتعد من البرد. سمع الرجل يفتح باب غرفة مجاورة لغرفته. ربما انها غرفة الزبون الجديد. تمتم يكن: "يارب. لتجعله ينام" ثم انفجر ضاحكا ضحكة جلجلت فى الفندق بأكمله كأنما أصابه جنون.

- 11 -

قدم الشرطى الذى اصطحب كل أفراد العصابة تفسيراته بصورة مشوشة فلم يستمع السيد نور الدين. فهو لا يعبأ بشخصه ولايعيره اهتماما. فموضوع المشاجرة التى دارت فى المقهى تعقدت شيئا فشيئا.

من بدأ المشاجرة؟ لا أحد يعرف. جلسىنور الدين خلف مكتبه يرقب المشهد بعين مليئة بالاشمئزاز. يتنهد أحيانا كرجل أصابه التعب والملل. يقفون أمامه صفا. ثلاثة رجال أقوياء لكل منهم يدان غليظتان، لعلهم حوذيون. وشخص رابع رقيق يدمى وجهه ويرتدى ملابس رثة، انه شحاذ، يمسك برأسه وينظر الى الضابط بكبرياء.

طرح نور الدين أخيرا سؤالا:

– هل تعرف هؤلاء الرجال الذين ضربوك؟

تحرك الرجل الدامى الوجه وتقدم خطوة ناحية الضابط. كأن هذا قد سبه بأمه. وصاح:

– يضربنى. من يجرؤ ان يضربني؟

– اذن مم تشكو يا ابن الكلب؟

– أنا لم أشك ياسعادة البك. من قال انى أشكو؟

وقف الحوذيون الثلاثة صامتين. يستغربون من سلوك ضحيتهم الغريب. قام نور الدين وقد انتابته الرغبة أن يضرب كل من حوله. لكنه أحس فجأة بكبريائه فتراجع. فهو من الخارج ضابط شرطة، قاس، يرفل فى زيه الرسمى، ولكن فى أعماقه يتساوى كل شئ. لم يفهم هذا المرض الذى يتملكه ويجعله يكره السلطة. يبدو له أن السلطة التى يستمد منها قوته غير موجودة. يندهش من حضوره. وضع يده على وجنته واستند على المكتب وقد بدا عليه الاعياء.

مال الشرطى عليه وسأله بصوت خفيض:

– هل أنت مريض يابك؟

رد نور الدين: ادخل هذه الشرذمة الى الزنزانة. لا أريد أن أراهم.

عندما خرج الشرطى والرجال الأربعة من الغرفة نظر نور الدين الى المخبر الذى جلس على المقعد لتوه. انه هو الذى كلفه بمراقبة الماخور:

– ما أخبارك؟

– فى الواقع، ليس لدىّ جديد يا سعادة البك. أعتقد أن مهمتى لا جدوى منها. فكل الناس هناك يعرفون من أنا.

– هذا لا يدهشنى. فليس فيك شئ مميز.

– حصلت لسعادتك على نتائج. اعتراف هذا الشاب.

قاطعه نور الدين: أعرف. أنه يسخر منك.

– لا أفهم.

– لا تحاول أن تفهم، فأنت غلبان، أخبرنى، ألم تلاحظ شخصا يدعى جوهر أفندى.

– أجل. رجل عاقل وله اسلوب مهذب. ولا يبدو مشبوها.

– حسنا. هذا سبب كاف بالنسبة لى. يمكنك أن تذهب الآن.

بقى وحده. أمسك رأسه بين يديه ةتنهد بعمق. أعصابه فى قمتها. لم تتركه هذه العصابة القذرة فى حاله. أراد نور الدين ان يقتلهم جميعا حتى يخرسهم. منذ وقت طويل يؤدى واجبه خير قيام. لكن ماذا يسمى هذا الضعف الغريب. هذا الملل وحى الذى يحسه أثناء الاستجواب. انه يقتل فيه كل رغبة جعله غبيا.

الغريب. هو ذلك الكبرياء الذى اكتشفه فيما حوله بين الناس الأكثر فقرا. الذين يملكون القليل. هذا الشحاذ ذو الوجه الدامى نموذج غريب. لم يود أن يعترف ان أحدا ضربه. وشعر أن شيئا قد مس كرامته. وجد نور الدين نفسه أمام نظام لا يخرق. نظام يهرب من كل تحقيقات

الشرطة. ما الذى جعله امتهن هذه المهنة؟ هل لايزال يؤمن بها؟ انه يقضى حياته يغرد أمامه هذه الحكايات الملعونة. يعانى من كبرياء الحفاة. أى حظ؟ وبينما يختال من الكبرياء. لم يستطع أن ينسى الحقد الذى قرأه فى عيون سمير. تنهد وهو يفكر فى هذا الأمر.

عليه ان ينسى. ويهزم ألامه، فليس هذا سهلا. ففى كل لحظة يبدو له تكابر هذا المتشرد المسكين. سوف يوقظ هذا جراحه. لماذا يا الهى. أية فرحة نأملها؟ أحس أن عليه أن يتخلص من مسئوليته فى هذه المعركة التى لا تنتهى ولا جدوى منها. ولن يحصد سوى المرارة والحسرة. فليمت القتلة والسفاحون، وليتخلص منهم.

كان الليل قد حل عندما قام وخرج الى الشارع. أضاءت المصابيح الميدان الملئ بالمحلات والمقاهى المزدحمة. أسرع نور الدين بعبور الطريق دون ان يعير وسائل النقل اهتماما. يسمع أصوات الترام والسيارات ولكن يبدو له أن الأشياء تبتعد عنه. تقدم زائغ العينين. وقد فك أزرار سترته متجها نحو مصير قوى غاشم. فعندما قابل جوهر – ابان الحديث الذى دار بينهما – رافقه حتى بابه. حدث تغيير فى مفاهيم نور الدين تتعلق بمهنته. بدأ نور الدين فى التردد. يشك دومًا فى السلطة المقدسة التى يمثلها. بدأ فى التساؤل أين الحقيقة. فهو ليس متأكدا من شئ. فرغم اقتناعه ان جوهر هو القاتل الذى يبحث عنه الا أن ليس لديه دليل ملموس. لقد اهتم بشخصية جوهر. أكثر من اهتمامه بالقبض عليه كمجرم. حسب أن جوهر طرح مشكلة سيكون حلها جوهريا بالنسبة

لمستقبله. وأثناء هذا بدأ فى تجميع كل الأدلة ضد جوهر. أحس انه يمس أمرا حساسا. ولن يترك خلفه سوى ركام. لكنه يشعر أن هذا الركام سوف يسبب له سلاما. هذا السلام الذى أحسه أثناء لقائه بجوهر يفتقده الآن.

تاه نور الدين بين الحوارى التى تضيئها فتائل المصابيح البعيدة. لايتذكر جيدا أين يقع البيت. فكل البيوت متشابهة. قام بعدة دورات يتفحص واجهات البيوت وهو يحاول أن يتذكر أمام أى باب ترك جوهر فى ذلك المساء. لم يستطع ان يحدد المكان بالضبط. راح وجاء حتى شعر بخيبة أمل. عندما ساقته صدفة أن يراه يدخل أحد الأبواب. قال جوهر:

– يا للمفاجأة السعيدة. هل جئت لتزورنى. أهلا وسهلا.

– كنت أمر فى الحى. وفكرت فى زيارتك. أتمنى الا أزعجك.

– أبدا. هذا شرف لىّ. فرصة سعيدة. فى الواقع لست معتادا على العودة الى المنزل مبكرا. لكننى أردت أن أضع هذه الباقة فى حجرتى.

حمل جوهر تحت أبطه باقة كبيرة من الصحف القديمة التى ينام عليها. طبقها تحت أبطه وبدا لاهثا. تأمل الضابط بعين مرتابة. ان لقاءه به مبعثا لسعادة غريبة. أحس ان هذا اللقاء متعمد وان نور الدين جاء لاستجوابه. هل يشتبه فيه؟ على كل هو ينتظر هذه الزيارة. بل يأملها قال:

– معذرة أن اسير أمامك. ولكن يجب أن أشير لك على الطريق. والا خاطرت بقتلك. فهذا بالغ الخطورة. وكل درجة فيه فخ مميت.

تبع أحدهما الآخر. وطئا فوق السلم. لم ير نور الدين جوهر. سمع أنفاس تلهث بصوت أجش. أحس أنه أصبح أعمى.

أخيرا رأى ضوءا. وقف جوهر على السلمة الكبيرة. كان باب غرفة جيرانه مفتوحا. ينبعث منها ضوء خافت من لمبة غاز وتبدو الغرفة خاوية. توقف جوهر عن الحركة لحظة. فهذا الباب المفتوح يخيفه. لا يريد أن يقابل جارته. هذه المرأة المخيفة. ولكن فجأة سمع صوت أشبه بصوت طفل يشده من تردده:

– أيها الناس الطيبون ساعدونى.

تقدم جوهر حتى عتبة الباب، دخل غرفة جيرانه. باحثًا عن مصدر الصوت. رأى فى ركن من الغرفة القورمة ملقى على الأرض. كأنه تمثال يثير الذعر. غرق فى دموعه. يحملق فى طبق ملىء بالفول وبعض اللقيمات أمامه: عشاءه. عندما اقترب جوهر. رفع رأسه وقد اكتسى وجهه بالارتياح. سأله جوهر:

– ماذا أستطيع بالنسبة لك؟

رد القورمة: أنا جوعان. ذهبت المرأة وتركتنى وحدى. الا يمكن أن تساعدنى فى تناول الطعام؟

رد جوهر: طبعا.

تنحنى ليضع باقة الجرائد أرضا. وترك نور الدين يقف على الباب، صرخ فى القورمة حين رآه:

– الشرطة. ماذا تفعل الشرطة هنا؟

قال جوهر: انه صديق. لا تقلق. فهو لا يريد بأحد شرا.

– لا أحب الشرطة. فليذهب.

نسى القورمة جوعه تحت وطأة الخوف ولم يفكر سوى فى الكارثة المفاجئة المتمثلة فى حضور الضابط. تلوى على عجيزته مستندا على أسماله. وأطلق زمجرة كحيوان سقط فى فخ ويريد أن يهرب من القبض عليه. فشلت المحاولات اليائسة التى بذلها نور الدين لتهدئته. استكان أخيرا. وتخلص من الخوف شيئا فشيئا، ظل ساكنا فاغر الفم، ينتظر طعامه، بدا أشبه بضفدع بهذا الأنف الكبير والشفتين الغليظتين والوجنتين المرتجفتين، واللحية.

انحنى جوهر قريبا منه. وبرقة وعذوبة أبوية بدأ فى إطعامه. تصرف مع القورمة كأنه طفل صغير. سأله:

– لماذا ذهبت. هل اختلفتما؟

قال القورمة: أجل. ابنت الكلب غيورة. لا تكف عن اختلاق الحكايات.

قال جوهر: اذا كانت غيورة فهى تحبك. احكى لى ماذا حدث؟

– حسنا. فى هذا المساء. عندما جاءت تأخذنى من المدينة، وجدتنى أتحدث مع جامعة أعقاب شابة مما أغضبها. وفى كل مرة ترى امرأة قريبة منى. تصيبها الغيرة. ومع ذلك فأنا وفى. وليس لى حول إذا أعجبت النساء بى. يا الهى. لا أعرف ماذا يجذبهن فىّ؟!

ظل نور الدين مستندا على طرف الباب. أثارت كلمات القورمة انتباهه. هل هذا حدث فعلا؟ لا يمكن أن يصدق هذا الكلام. خاصة فيما يتعلق برجل له هذه الصفات. أحس أن القورمة يبالغ بطريقة سافرة وهو يتكلم عن الجاذبية التى يسببها للنساء وما يثيره هو غياب كل الحركات فيه مما أكسب القورمة صوتا جهورا وقويا. كأنه صندوق يتكلم. ود نور الدين أن ينفجر ضاحكا. لكنه أحس أن وظيفته تمنعه. فمهما حدث عليه أن يكون جادا. لقد جاء هنا كى يحل لغزا، ويمكنه أخيرا أن يفهم.

أكل الرجل بشراهة. ومن وقت لآخر يلقى نظرة على نور الدين. لم يصدق حتى الآن أن ضابط الشرطة فى داره لزيارة حميمة. فاحساسه أنه سقبض عليه قد يجعله يتقيأ. لذا توسل الى جوهر ان يسرع، وألا يتركه، قال جوهر:

– ولا يهمك. سوف تعود بالتأكيد.

قال القورمة: لا. لا أريدها. لتذهب فى داهية. فكفانى ما رأيته منها. ثم انها أكبر منى سنا. سوف أجعلها تتحسر وأتزوج مرة أخرى من فتاة بكر.

ابتسم بوقاحة وهو ينظر الى جوهر ويكمل:

– ما رأيك؟

تذكر جوهر المرأة العملاقة. وهنأه لأنه ستكون له جارة حلوة قريبا. وقال:

– أعتقد انك على حق. فمن الأفضل ان تتزوج شابة صغيرة. تجعلك سعيدا.

– أليس كذلك. فتاة بكر صغيرة. آمل ان تشرفنى فى حفل زفافى. سوف أقيم وليمة عشاء.

قال جوهر: لن تفوتنى. هل تود أن تشرب؟

– أجل. من فضلك. القلة هناك.

وضعت القلة بجوار الحائط خلف جوهر الذى أمسكها وقربها من فم القورمة وجعله يشرب. قال القورمة بعد ان شرب:

– شكرا. أنا ممتن لهذا الكرم.

رد جوهر: هذا شرف لى أنا.

– يمكنك أن تعتمد على معرفتى. سأكون سعيدا وأنا أرد لك الجميل.

قال جوهر: فى خدمتك. فجار مثلك منحة من السماء.

لم يكن تبادل عبارات المجاملة مقنعا لنور الدين الذى أحس الهما يسخران منه. ود أن يذهب. ويفلت من هذا الجحيم. لكن شيئا ما أوقفه رغما عنه. الهما يريدان أن يفسرا له كيف ان هذا القورمة. بقايا الانسان. يمكنه أن يثير غيرة امرأة. بالطبع لا. أما جوهر فقد استكمل حديثه مع القورمة وكأنما يتعلق الأمر بنقاش بالغ الرقى. أحس نور الدين أنه أمام زوجين يتبادلان الغزل. انتابته الرغبة أن يحطم كل شئ أمامه. تراجع ببطء فوجد نفسه أمام السلم المظلم. لكن الوقت متأخر كى يهرب من هذا الفخ الذى دبره القدر. عبر السلم ودفع باب غرفته.

– تفضل يابك.

تردد نور الدين أمام الباب. ثم تقدم فى الظلام كأنه قرر أن يترل هوة سحيقة. توقف لاهثا. فقد اصطدم بشئ خشبى. استدار وهو يشعر ان مسكينا سوف يطعنه فى قلبه. أحس أن سمير يختفى حاملا سكينا ويود

أن يقتله مثلما أبلغه يوما. وخلال لحظة بلغ فيها اعياؤه حده. سمع جوهر يتحرك فى الظلام. ثم أشعل شمعة أضاءت الغرفة. قال جوهر:

– أتريد أن تجلس. معذرة الا أتشرف بها. فهذا مسكين فقير. تصرف كأنك فى بيتك.

جلس نور الدين على المقعد ولم يرد. ماذا يعنى هذا الحوار. هل يتصوره غبيا؟ يتصرف كأنه فى بيته! لقد بلغت السخرية مداها. كاد نور الدين أن يعتقد أن أرواحا خبيثة تسخر منه. انتظر ان يرى قطعة أثاث. أو أى شئ مكسور. لكن لاشيئا فى هذا المسكن الغريب. هذا الخواء الغريب أشبه بسراب. بدا له هذا الخواء مشبوها. وهو يجول بعينيه بنظرة قلقة مليئة بالدهشة.

جلس جوهر فوق باقة الجرائد. أسند ظهره للحائط. لايزال يرتدى طربوشه ويمسك عصاه فى يده. الجو بارد ورطب فى الغرفة. زرر نور الدين ياقته. وهز رأسه وقال بعد صمت:

– كل هذا يبرر االسبب يا جوهر أفندى.

– ماذا تعني؟

– أفكر فى هذا الشحاذ. الذى يتصور أن كل النساء يهرولن خلفه.

– لاتنسى حضرة الضابط ان هذا الشحاذ – بسبب دخله – يعد منجم ذهب. ولهذا تهتم به النساء.

– ومع هذا فهو مخلوق بشع.

قال جوهر: لاشئ بشع. خاصة بالنسبة لامرأة. فهذا الرجل يمارس الحب جيدا وأفضل من آخرين. وأؤكد هذا من خلال ما سمعت. صدقني فقد كانت تأوهات زوجته تؤكد ذلك. وأعتقد ان هذا يكفى لاحداث النشوة.

– أية نشوة.

قال جوهر: الا تعرف أن رجلا كهذا يسبب نشوة؟

– تقصد وحشا كهذا.

– وحش أفضل منا حضرة الضابط. لأنه يعرف السلام. هل تعتقد أن للحكومة سيطرة على رجل قورمة. ماذا تملك له.

قال نور الدين: تقبض عليه.

– على قورمة، لا، لايمكن لأية حكومة، مهما كانت اخلاقياتها، أن تفعل هذا.

– أنت رجل غريب. هل تقرأ كل هذه الصحف؟

رد جوهر: ليحفظنى الله. استعملهم كحاشية أنام عليها.

لم يفهم نور الدين ماذا تعنى الصحف المفروشة فوق الأرض. فى مسكن مليء بالفقر. ربما أكثر المساكن فقرا. ينام فوق حاشية. كيف يمكنه أن ينام فوق كومة صحف؟

– الا تقرؤها. أتنام فوق هذه الكومة؟

– أنام هكذا منذ سنوات. هل يدهش هذا سعادتك؟

– كيف وقعت فى هذه المأساة؟ فمن حديثك، يبدو انك رجل مرموق، رفيع الثقافة، وانك تشغل منصبا حساسا فى المجتمه. ومع هذا تعيش كصعلوك، هناك سر أريد أن أفهمه.

– لا يوجد سر، أعيش كصعلوك لأننى أرغب ذلك.

– يا الهى، أنت غريب، ولا أفهم ظروفك.

– الحقيقة ياحضرة الضابط التى تدهشك ببساطة هى الحياة. الحياة الحقيقية. الطفولة البسيطة. لايوجد غموض. هناك فقط أقذار.

– من تقصد بالأقذار؟

– اذا لم تكن تعرف الأقذار فلا أمل فيك. انه الشئ الوحيد الذى لا نعلمه للآخرين. ياحضرة الضابط.

أخفض نور الدين رأسه. ووضع يديه على ركبتيه. بدا كأنه يفكر فى مشكلة عويصة. ثم قال:

الأمر أكثر تعقيدا من هذا. فلا يوجد سوى طيبين وأقذار.

قال جوهر: لا. أرفض هذا المفهوم. لا تقل ان الأمر أكثر تعقيدا مما تتصور. كيف لا تفهم ان هذه الأوجوهرضاع لايستفيد منها سوى الأقذار؟

صمت نور الدين. من جديد أحس بالملل يتسرب اليه. هذه الغرفة الخاوية التى تثقل على مشاعره تبدو معزولة عن بقية العالم. تخيل نفسه نائما فوق كومة من أوراق الجرائد. سعيدا. هانئا وقد تخلص من كل متاعبه. عن ماذا يبحث؟ عن شئ أكثر راحة للبال من هذا، حقا، لايمكن أن يحدث شئ فى هذه الجدران. فى هذا العدم. جوهر بلا شك على حق. يعيش كصعلوك. وهو عين العقل. حياة بدائية المظهر. بلا متاعب. بلا خوف أو حياء. لقد كان فخورا بهذه الآثام التى اقترفها طيلة سنوات. فليغسل نفسه مما ارتكب فليس لديه ما يخشاه فى احتقاره وأنانيته المفرطة.

لكن ليس من السهل أن يقع تحت طائلة الاغراء. قام من مقعده. وسار فى الغرفة ثم استدار ووقف أمام جوهر. وللحظة أعجب بهدوء وجه مضيفه الذى يشع عن انعكاس ضياء الشمعة. هذا الرجل ارتكب، بلا شك، جريمة. ومع هذا فان ملامحه تحتفظ بصفائها. بعيدا عن الخوف والمعاناة. غريب عن العالم الذى يحيطه. انطلقت تنهيدة من مصدر نور

الدين. أحس انه لم ينضج بعد كى يصل الى هذه السكينة التى يحسها فى حياته كصعلوك. انه يقع تحت سيطرة تمليها عليه وظيفته. وواجبه يتطلب منه أن ينهى مهمته. لايمكن أن ينسى انه ضابط شرطة عليه احترام القانون. وأنه هنا من أجل قتل العاهرة الصغيرة. قال:

– فى الحقيقة. جئت لأسألك بضعة أسئلة.

قال جوهر: وأنا أسمعك. يمكنك أن تسأل كما تشاء .

أكمل نور الدين وهو يجلس على المقعد: تتعلق بجرينة القتل فى الماخور.

قال جوهر: أعرف. كنت أنتظر زيارتك. وسوف أرد عليك. سوف أعد لك قهوة، معذرة فقد نسيت ان أقدم لك مشروبا.

قال نور الدين: لا أريد شيئا. لاتزعج نفسك من أجلى.

أشعل جوهر الوابور، وبدأ يعد القهوة. وبينما يشرب من القلة. تأمل نور الدين فى صمت. انه جاد فى أن يعرف. لكن ضابط الشرطة لم يسأل بعد. يبدو كأنه ضائع فى حلم بعيد. لهذا سأل جوهر:

– هل تشك فى أحد؟

قال نور الدين زائغ العينين: بصراحة أنا أشك فيك.

قال جوهر: حسنا. أهنئك. فأنت على حق. فأنا القاتل.

أحس نور الدين بكارثة تسقط على أم راسه من جراء هذا الاعتراف. هز رأسه بينما تتطاوح يده أمام عينيه. كأن ينكر، ويرفض، صاح:

– يا للسخرية. هذا عبث طفولى. ياجوهر أفندي! صديقك الشاب الكردى حذا حذوك. هل تود أيضا اصلاح العالم؟

قال جوهر: رائع ان تشبهنى بهذا الشاب. الكردى يفكر مثلك. ويعتقد أن الأمر أكثر تعقيدا من هذا.

جهزت القهوة. سكب جوهر حوايا البراد فى فنجانين. ثم مد أحدهما الى نور الدين.

قال: تحت أمرك. ماذا تود أن تفعل؟

– ليست أمامى فكرة الآن. لايمكن ان أقبض عليك بسبب اعتراف بسيط. تلزمنى قرائن. سوف اتخذ قرارى غدا. يجب ان أسأل شخصا. وسيتوقف كل شئ على هذا الاستجواب.

ثم فجأة. سمعا أغنية قادمة من الغرفة المجاورة. يغنى القورمة أغنية مرحة مليئة بالجنون. أرخى نور الدين أذنيه:

بسرعة ياعربجى، خذنى معاك.

ووديني بيت البنت الحلوة.

– انه يغني.

قال جوهر: ولماذا لا يغني. فلديه كل أسباب السعادة.

– بالتأكيد. كنت أحب ان أفهم كل هذا.

رفع نور الدين الفنجان الى شفتيه وارتشف من القهوة المريرة. ربما أكثر مرارة من حياته كلها.

كادت الشمس أن تصل الى عنان السماء عندما توقف يكن مترددًا فى الميدان. يعرف أنه سيكون بعد قليل فى قسم الشرطة. ومع ذلك فهو ليس خائفا. هو لا يخشى شيئا فى تردده. استولت عليه رغبة عارمة أن يطيل نزهته وسط الجموع. عليه أن يبدو طبيعيا رغم انه مسطول. يحس بالهدوء. وبالصفاء الروحى. تملؤه فكرة مواجهة السلطات حتى فى أضيق الحدود.

انتظر يكن أن يأخذ هذا الموقف المقارن. يشك أن ضابط الشرطة نور الدين يحمل له نيات سيئه. لكن ماذا يعرف بالضبط؟ هل يعامله كقاتل. أم يشتبه فى انه يعرف القاتل؟ على كل فهو يأمل ان يعترف له. انه يعرف الطريقة التى سيلجأ اليها الضابط. سيصبح القهر وسيلة حياة فى مجتمع متحضر. لايمكن لأحد أن يفعل شيئا لسرطان المعدة. ولا ضد

الرعب الذى يمارسه البشر على الآخرين. نظر يكن الى قسوة رجال الشرطة بنفس منظوره الى الأمراض المستعصية والى كوارث الطبيعة.

يقع قسم الشرطة فى الجهة المقابلة من الميدان. مبنى من الحجر الأبيض. دور واحد. ذو نوافذ صغيرة مدعومة بحديد. وبدلا من أن يعبر يكن الشارع سار فوق الرصيف الأيسر. الساعة الحادية عشر صباحا والميدان مزدحم بالعديد من البشر الذين يمارسون مهنا عديدة، يحب يكن كثيرا هذا المنظر. من السهل أن يعى أنه ليس هناك شيئا عاجلا، فرغم ضجيج الترام وأصوات العربات. وصياح الباعة الجائلين. أحس يكن بأن هذا عالما تقوم فيه الايماءات والكلمات بدور هام. فالمستقبل بعيد عن هذه الجموع التى تتحرك نحو الأبدية. يبدو مزدحما بفرحة عارمة لايمكن لأى اضطراب أن يغيرها.

فكر يكن فى المعاناة التى تنتظره. انها ليست أول من يتم استجوابه فيها. وليست وحشية الشرطة بخافية على أحد. حتى فيما يتعلق بتلك المخالفات الصغيرة المتعلقة بتعاطى المخدرات، هذه المرة يختلف الأمر. فهو يتعلق بجريمة قتل. السؤال هو أن يعرف عل سيضربه رجال الشرطة بقوة كالعادة. هل يعاملون من يتعاطى الحشيش مثل المشبوه فى جريمة قتل كى يرغموه على الكلام؟ يعرف أنه لن ينطق أبدا باسم جوهر. فهذا ليس من سمات الشجاعة أو الولاء لصداقته. فما حدث يبدو له أمرًا عابرًا بالمقارنة للجرائم العديدة التى تقترف فى العالم. لا. الآن. لا يتعلق الأمر بجوهر. ولكن عليه أن يدين لنور الدين دور الشرطة. فنور الدين

شخصية عبثية. وعلى يكن أن يكشف له حساسية موقفه، وعند هذا الحد سوف يكون سعيدا وسيضحك ساخرا.

دخل يكن القسم ثم عرج على غرفة كبيرة بيضاء الجدران. ليس بها سوى مكتب يجلس خلفه جاويش يقرأ جريدة بطريقة تثير الضحك. اقترب منه يكن وأخرج طلب استدعائه وانتظر. كف الجاويش عن القراءة ورفع رأسه:

– اذن فهو أنت؟

تطلع الى يكن كأنما يلقى عليه العديد من التهم. يعرف يكن هذه النظرة. فدمامته لا تعجب رجال الشرطة. يحسون فيها أنه قاتل أثيم. ابتسم ومد للجاويش بالورقة فأخذها وألقى عليها نظرة، ثم قال:

– انتظر مكانك ولا تتحرك.

قال يكن: لن أهرب.

داس الجاويش على زر وهو يرقب يكن بعين حذرة. على التو ظهر شرطى أشبه بالثور وحياه التحية التقليدية.

– تحت أمرك ياجاويش.

– خذ هذا الرجل الى حضرة الضابط.

حياه الشرطى من جديد. ثم أشار ل"يكن" أن يتبعه.

– تعال.

تبع يكن الشرطى فى ممر ضيق. أحس بارادته تخور وهو يتأمل دليله. لقد وقع بين جلاد الموت. توقف الشرطى أمام باب وطرق. رد صوت من الداخل. فتح الشرطى الباب ودفع يكن أمامه.

– حضرة الضابط! قال الجاويش أن آتى بهذا الرجل اليك.

قال نور الدين: حسنا يمكنك أن تذهب.

كان الضابط جالسا خلف مكتبه. وقد فتح ياقته. وبدا مكفهرا غير حليق اللحية. كأنه لم ينم طيلة الليل. تشع عيناه بالحرارة. وهما تتطلعان الى يكن كرجل يعرف سر الحكاية:

– تعال. أنا سعيد لرؤياك.

قال يكن: السلام عليكم يا حضرة الضابط.

رد نور الدين: لقد تأخرت. ولهذا السبب وحده تستحق الحبس ثمانية أيام.

– آسف ياحضرة الضابط. فليس لدى منبه.

– دعك من السخافات. لست مستعدا للمزاح. الأمر جاد هذه المرة. ولن تخرج حيا من هنا.

ودون ان يستأذن أمسك المقعد. وجلس وهو يقول:

– لقد كتبت وصيتى.

سكت نور الدين. حاول أن يتمالك غضبه. فمن أولى كلمات يكن وهو يبدو ساخرا من هذا الاستجواب. هؤلاء الناس لا يأخذون الأمر بجدية. يشعر نور الدين أنه فى أحسن حالاته مع هؤلاء الحفاة مهما كانت الجرائم كبيرة. ومع هذا فانه يثير خوفهم. لكن مع هؤلاء المثقفين الذين يسخرون من السلطة.. والخطب التى يلقيها الوزراء. وان هناك ضميرا أعمى فى دساتير العالم المتحضر. سلوك يكن وأقرانه يضايقه دائما. يبدو لهم أنه لاتوجد حكومة. فهم ليسوا ضد الحكومة. لكنهم يتجاهلونها.

– لن أتحمل طويلا سخرياتك الغبية. أنت هنا لترد على استجواب يتعلق بجريمة قتل.

ابتسم يكن بغباء.

– أنا فى خدمة سعادتك.

يود أن ينتفض من مقعده، يعرف أن كل هذا سوف ينتهى فجأة لأنه لن يقول شيئا. وعبر الستار الحديدى للنافذة المغلقة رأى حركة الميدان وسمع ضجيج العربات الحياة تسير فى الخارج. قال الضابط:

– حسنا. لنبدأ من الأول. أحذرك. عليك بالجدية. واجابة محددة. أعرف انك تعلم أشياء كثيرة.

قال يكن: أنا. حقا ياحضرة الضابط. أنت تشرفنى بهذا.

– قل لى. هل كنت فى بيت الست أمينة يوم الجريمة؟

بدا يكن يفكر:

– كى أقول الحقيقة لحضرتك. فقد كنت نائما.

– عندما قتلت أرنبة. أين كنت؟

– قلت اننى كنت نائما.

تمالك نور الدين أعصابه. ظل صامتا لحظة. وقد تجهم وجهه. لم يشك أن يكن يتصنع الغباء.

– أنا وافق انك كنت هناك فى هذا اليوم. من قابلت؟

– كنت نائما ياحضرة الضابط.

– ألم يأت أحد أثناء نومك؟

– كيف تريدنى أن أعرف. طالما كنت نائما.

– ياالهى. هل كنت نائما طيلة الوقت يا ابن الكلب.

قال يكن: معذرة ياحضرة الضابط. لم أكن أعرف أن. النوم عملية غير قانونية.

– حسنا. سوف أوقظك.

أحس نور الدين بالتشتت. فهذا الغباء تجاوز حدوده. كان هذا الملعون نائما. لعله تعاطى حشيشا قبل أن يأتى. يعرف أنه قادر أن يتخلص من هذا الموقف أو ان يسير فيه حتى النهاية.

– سأمهلك خمس دقائق لتفكر. وبعد ذلك سأجبرك على الكلام.

رد يكن أنه كان نائما. وعندما لم يطرح الضابط اسئلة سكت. بدأت الدقائق الخمس فبدأ يفكر فى أشياء تافهة.

نظر نور الدين الى ساعته. ثم جلس فى مقعده وانتظر. استغرق هذا التحقيق وقتا طويلا. ولن يصبح أهلا لثقة السلطات العليا. يعرف أن يكن لن يتكلم. حتى لو عذبوه. وسيحتفظ بسره. هذا الموقف يؤذى شخصه. انه بادى القلق. يعلم نور الدين أن يكن يعرف القاتل. لماذا يسكت؟ فالقاتل لايمكنه أن يدفع له كى يسكت. والجريمة ليس لها دافع.

وليست مسألة شرف. لقد تحرى نور الدين ماضى يكن وعرف أن هذا الأخير لم يكن مشبوها يوما.

سأله:

– ألست خائفا من الضرب؟

رد يكن: أبدا.

– مستحيل.

– ليس الضرب سوى حدث فى حياة رجل مثلى ياحضرة . أمر عادى.

– أنت رجل بلا كرامة.

ضحك يكن وقال:

– أنت تذكرنى بأمى. كانت تقول لى دائما أن أبى كان رجلا شريفا. أما أنا فعار على الأسرة.

– أليس لديك أى احساس. ألا تحس بشىء؟

– نعم ياحضرة. الآن أشعر بدهشة عظيمة.

– أى نوع من الدهشة؟

– أدهش من رجل مثلك يقضى وقته فى ممارسة ألعاب رائعة كهذه.

– فيم تودنى أن أقضى وقتى؟

رد يكن: فى التتزه.

أحس نور الدين بالغيظ، فقال:

– ليس لى الآن حول، ذنبك على جنبك.

فتح الباب فدخل منه شرطيان، نظرا الى يكن وهما يقتربان منه ببطء.

– ستتكلم الآن.

لم يرد يكن. أشار نور الدين الى الشرطيين. مر أحدهما وراء يكن بينما أمسكه الأول من الأمام، وبدأ فى ضربه.

نظر يكن الى ما يحدث كأنما الأمر لا يعنيه. تساءل عما اذا كان الضابط يلعب دورا رائعا بالنسبة لهم.

هذا شيء رائع.

فهؤلاء الناس يتسلون بطريقتهم. وهو لايكن لهم أى ازدراء أو كراهية، أحس بالهدوء. وأغلق عينيه.

لفت الضربة الأولى رأسه. أحس بألم غريب، اعتدل بعد الضربة الثانية. ثم توالت الضربات. ازداد الألم الى حد لايمكن احتماله. وجد نفسه غارقا فى جحيم أسود ملىء بنور البرق. وهو يسمع نور الدين يسأله:

– هل ستتكلم يا ابن الكلب؟

فجأة. وسط ارتطام رأسه. سمع ضجة من بعيد. ذكرته بشئ وما حاول أن يعرفه. أجل. انها أصوات آذان الظهر، فتح عينيه وصاح.

– انه الأذان ياسادة.

رفع الضابط ذراعه كى يضربه. توقف مندهشا. سأله:

– ها..؟

قال يكن بصوت ضعيف: أعتقد ان ساعة الطعام حانت، فأنا جوعان.

أخفى نور الدين رأسه بين يديه. وأراد أن يصرخ. صاح:

– ألقوه فى الخارج لا أريد أن أراه.

أمسك الشرطيان يكن ودفعاه خارجا. بقى نور الدين وحيدا. شعر بالتوهان. تذكر أن الظهر قد حان وعليه ان يذهب لتناول الغذاء.

عندما خرج نور الدين من قسم الشرطة. كان قد توصل أن جوهر هو القاتل الحقيقى. ولكن ماذا يهمه الآن. لقد قرر أن يقدم استقالته ويعيش حياته كصعلوك. صعلوك أمر سهل. لكنه سيد متكابر. أين يجد الكبرياء.؟ لا يوجد أمامه سوى ملل لاينتهى. وحاجة كبيرة للسلام. للسلام وحده.